

جامعة الجبالي بونعامة خميس مليانة  
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية  
شعبة التاريخ

## محاضرات في مادة

دور مملكة مالي في نشر الحضارة العربية

الإسلامية في غرب إفريقيا

موجهة لطلبة السنة الثانية ماستر تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء

يقدمها الأستاذ الدكتور نور الدين شعباني

2020-2021م

# محاوور الماده محاوور الماده

المحور الأول: تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية في مالي:

أولاً: دور التجار المسلمين خلال القرن الخامس الهجري:

ثانياً: مجهودات ملوك مالي

المحور الثاني: المظاهر الحضارية لمملكة مالي

1. النظام التعليمي:

2. نشر اللغة العربية

3. نشر المذهب المالكي

4. حركة التأليف

5. دور مالي في العمران الإسلامي .

المحور الثالث: دورها في التنمية السوسيو . اقتصادية .

1. في الميدان الاقتصادي

2. التنظيم التجاري

3. التنظيم الاجتماعي

المحور الرابع: إسهاماتها في بناء الصرح الحضاري العالمي .

1. في ميدان التشريعات (كوركافوكا)

2. في ميدان التنظيمات السياسية و الاقتصادية

3. في ميدان الفن (الموسيقى، الفن التشكيلي، الرقص)

4. في الميدان الجغرافي (الكشوفات)

## مقدمة:

يمتد تاريخ منطقة غرب إفريقيا أو ما كان يعرف قديما بالسودان الغربي، إلى عصور موغلة جدا في القدم، تتجاوز الألفية الثامنة قبل الميلاد، لكن ما وصلنا من هذا التاريخ الواسع العريق إلا شذرات اغلبها تكهّنات و استنتاجات قام بها علماء الآثار و الأنثروبولوجيين الأوروبيون، خلال الفترة الاستعمارية و ما بعدها، و ذلك نظرا للفقر الشديد الذي تعانيه مادة الموضوع الخاص بتاريخ هذه المنطقة خلال تلك الفترات المظلمة من تاريخها.

وبداية من القرن الثاني للهجرة/السابع للميلاد، بدأت تظهر الكتابات حول ممالك السودان الغربي، وأضحت التفاصيل حول هذه المنطقة تتضح أكثر فأكثر بسبب بداية التدوين التاريخي الذي كان يقف وراءه الرحالة و الجغرافيون المسلمون، سواء من خلال رحلاتهم او من خلال روايات تجار القوافل الذين بدؤوا يتدفقون على المنطقة الواقعة جنوب الصحراء.

و لعل اكبر مملكة حظيت بذلك الصيت الكبير و ذلك الكم الكبير من المعلومات التاريخية هي مملكة مالي الإسلامية، بفضل سمعة ملوكها المسلمين من جهة و من جهة اخرى بفضل الدور الذي أصبحت تضطلع به و مكانتها في العالم الإسلامي من خلال دورها الملموس و لمستها الحضارية الواضحة بالنسبة للحضارة و الثقافة العربية الإسلامية، و غيرت تلك الصورة النمطية التي طالما لصقت بالممالك الإفريقية جنوب الصحراء الوثنية الغارقة في اوحال الشعوذة و السحر و التخلف الحضاري.

فما هي جذور انتشار الإسلام في مملكة مالي، و ارتباطها حضاريا بالأمة الإسلامية ، وما هي مظاهر إسهاماتها في الثقافة العربية الإسلامية ؟

## المحور الأول

: تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية في مالي:

أولاً: دور التجار المسلمين خلال القرن الخامس الهجري:

رغم أن التاريخ الدقيق لظهور مملكة مالي ككيان سياسي، لا يزال يشوبه الغموض بسبب نقص المعلومات التاريخية المدونة حول الفترة التي سبقت القرن خامس الهجري، فكل ما كتب حول هذه المرحلة هي معلومات استخلصت من التراث الشفوي المنقول للمالانكي<sup>(1)</sup>، لكنه ابتداء من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد بدأت تظهر المعلومات حول هذه المملكة و خاصة بسبب انتعاش تجارة القوافل بين تجار شمال افريقيا و جنوب الصحراء، و التي بفضلها تمكنا من رصد اول الزعامات المالية التي تعاملت مع التجار المغاربة، و هو ما يجعلنا نفهم بان تطور المعلومات حول مملكة مالي و دول منطقة نهري النيجر والسنغال كانت يتبع تطور العلاقات التجارية بين هذه الممالك و دول المغرب الإسلامي.

و نفهم من هذا الامر أيضا بأن احتكاك سكان منطقة النيجر و السنغال بتجار المغرب الإسلامي جعلهم يعتنقون الإسلام بطريقة سلمية و سلسلة، و هو ما جعل أهل السودان الغربي يندمجون شيئاً فشيئاً مع المجتمع الإسلامي و ثقافته العربية الإسلامية، وينهلون منها لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخهم ترتبط ارتباطاً قويا بالحضارة العربية الإسلامية وتصبح جزءاً من تاريخها.

أما بالنسبة لملوك مالي فإن أمر إسلامهم يبقى موضوع جدل بين المؤرخين ، لكنها لاغ تخرج عن إطار العلاقات التجارية التي أقامها ملسمو المغرب مع ملوك و تجار مالي، و مما يعزز هذه الفكرة هو وجود نص تاريخي مشهور تداوله كل من البكري<sup>(2)</sup> والمصادر

(1) احمد الياس، دور فقهاء الاباضية في اسلام مملكة مالي، ضمن موقع الكتروني:

<https://om77.net/forums/thread/34761>

(2) البكري(أبو عبيد الله بن عبد العزيز):المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، مقتبس من كتاب المسالك و الممالك. مكتبة أمريكا و الشرق ميزونوف، باريس، 1965م.

الاباضية و على رأسها الدرجيني<sup>(1)</sup>، و الذي تروي قصة إسلام أول ملك مالي على يد تاجر مسلم، و مفاد هذا النص أن هذا الملك: « قد أجدبت بلاده عام بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، ولا يزدادون إلا قحطا وشقاء، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته، واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه... ولم يزل به حتى اسلم وأخلص نيته واقراه من كتاب الله مما لا يسع جهله، ثم استتاب به ليلة الجمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب القطن... فقام المسلم يصلي والملك يؤمن فما انفجر الصباح إلا والله قد أعمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكهم مذ ذاك بالمسلماني. »<sup>(2)</sup>

نلاحظ من خلال نص البكرة بان اسم هذا الملك كان المسلماني، بينما يسميه ابن خلدون بـ برمندانة حيث يقول : «... يذكرون أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندان ... وحج هذا الملك و اقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده»<sup>(3)</sup>. بينما يرجح سبنسر تريمغهام بان برمندانة ما هو إلا لقب لهذا الملك و تعني بلغة المندي ملك مالي<sup>(4)</sup>.

و من خلال نص البكري وابن خلدون و القلقشندي<sup>(5)</sup>، نستنتج بان ملك مالي الذي اسلم كان قبل تأسيس إمبراطورية مالي بقيادة سوندياتا كيتا التي ظهرت خلال القرن السابع للهجرة/13م، وهذا تزامنا مه استقرار الاباضية بعد سقوط دولتهم في واحات فزان وغدامس وسدراتة و ورجلان وغرداية، منذ القرن الثاني للهجرو/الثامن الميلادي، والذي تعزز باعتناق

---

(1) الدرجيني(أبو العباس احمد بن سعيد):طبقات المشائخ بالمغرب.تحقيق وطبع:إبراهيم طلاي، مطبعة البعث الجزائر، دون تاريخ. الجزء الثاني.

(4) البكري،المصدر السابق ، ص 178.1

(3)ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000م، المجلد السادس، ص 266.

(4) (Trimingham (Spencer), The history of Islam in west Africa. Oxford University press, London, 1963, p25.

(5) القلقشندي'ابي العباس، صبح الأعشى في صناعة الانشا، المطبعة الأميرية ، القاهرة، 1915،المجلد الخامس، ص292.

مجموعات من قبيلتي هواره و زناتة البربريتين للمذهب الإباضي، حيث ارتبط الإباضية بتجارة الصحراء و تخصصوا في التجارة مع بلاد السودان (1). و تعزز دور الإباضية أكثر في تجارة الصحراء مع ظهور الدولة الرستمية الإباضية في تيهرت عام 776م.

و لقد كانت القوافل الإباضية تتضمن مشروعا اقتصاديا و دعويا في نفس الوقت فلقد كان يتطلب في قائد القافلة العلم و الدراية في فقه التجارة، حسبما لمسناه من قصة ابن الصغير حول منع عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم لابنه افلح من السفر إلى تجارة السودان بسبب إخفائه في الإجابة على مسألة تخص الربا(2). كما تشير المصادر إلى أن الإباضية كانت لهم مؤسسة علمية تسمى مجلس العزابة و التي تضم كبار رجال العلم سخرؤا جهودهم للدعوة الإسلامية، حيث وجد عدد من رجالها في بلاد السودان (3).

لهذا فإننا يمكن أن نقول بان التجار الإباضية كانوا أول من قام بممارسة الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا قبل مجيء فقهاء المذاهب الأخرى، و حتى الشهادة التي أدلى بها الشماخي ومفادها: « بلاد السودان بغانة و ما يليها كانت تدين بالمذهب الإباضي حتى تسامعت بهم المخالفون فقصدوها من كل صوب فردوهم إلى مذاهبهم.»<sup>4</sup>. فإنها كلها معطيات تجعلنا نعتقد بان النص الذي أورده البكري و الذي يعد اقدم نص يتحدث عن إسلام ملك مالي(يعود إلى القرن الخامس الهجري/11م)، و الذي تناقلته بعد ذلك مصادر إباضية و غير إباضية ، كان الداعية التاجر هو احد فقهاء الإباضية. و حتى إذا رجعنا إلى الدرجيني فإنه يقول بان التاجر صاحب الدعوة هو علي بن يخلف" الذي سافر إلى سافر إلى بلاد غانة سنة 575هـ/1180م (5).

---

(1) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير القاهرة، 1963، ج3، ص 349.

(2) ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق وتعليق: د. محمد ناصر، وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص81.

(3) احمد الياس، المرجع السابق. انظر ايضا: الدرجيني، المصدر السابق، ص 326

(4) الشماخي، نقلا عن احمد الياس، المرجع السابق.

(5) الدرجيني، طبقات المشايخ، ص ص 137، 138.

## ثانيا: مجهودات ملوك مالي:

لقد ذكر المقرئزي<sup>(1)</sup>، و ابن خلدون اسما بعض ملوك مالي الذين اسلموا و أدوا فريضة الحج، منهم موسى الاكوي الذي يعد أول من حج منهم بعد برمندانة، و منهم منسا أولي(علي) ابن سوندياتا كيتا، الذي حج أيام حكم الظاهر بيبرس في مصر، و أيضا ساكوة<sup>(2)</sup>.

أما أشهر من تحدثت عنه المصادر من الحجاج الماليين فهو منسا موسى بن ابي بكر الثاني، الذي قام ببعث للاستلام في مملكته من خلال محاربة الوثنيين في الجنوب، ونشر الثقافة العربية الإسلامية، و صبغ المجتمع المالي بالصبغة الإسلامية ، في المجالات السياسية والاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية<sup>(3)</sup>

وقد بلغ تعلق منسا موسى بالإسلام وبأهله، حدا جعله يطلب من شريف مكة خلال تواجده بها أن يرسل معه إلى مالي اثنان أو أربعة من الأشراف المنحدرين من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته ليكونوا رمزا للمباركة التي حضي بها، ويستمد منهم شرعية ملكه أمام رعيته، وتتبرك أرض السودان بخطوات أقدامهم، وأعلن عن مكافأة تقدر بألف مثقال من الذهب لمن يريد الذهاب معه، وفي الأخير استطاع أن يجلب معه أربعة أشخاص من قريش ومعهم عائلاتهم، ومنح كل واحد منهم ألف مثقال ذهب، وأنزلهم في منطقة تسمى شنشن في ضواحي مدينة جني، لكن يعتقد بأنهم ليسوا من الأشراف<sup>(4)</sup>.

---

(1)الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك.تحقيق:جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 1420هـ/2000م .

(2) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، مجلد5، ص 496.

(3) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص483. . انظر أيضا: العمري(ابن فضل الله شهاب الدين) المتوفى سنة 749هـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . تحقيق: عزة احمد عباس، الطبعة الأولى، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2002م، السفر الرابع، ص102.

(4) Mahmoud kati : Tarikh el fettach. Traduit par: O.Hodas et Maurice Delafosse.Paris, 1913.,p63.

و خلال زيارة ابن بطوطة لمملكة مالي وجد بها ملك كان حريص على نشر القيم الإسلامية بين رعيته، و هو منسا سليمان شقيق منسا موسى ، الذي كان محبا للعدل و مقربا للعلماء والفقهاء، ويحرس على تعليم القران و صلاة الجماعة لرعيته(1).

### 3. دور الرحلات العلمية و الدينية في نشر الإسلام في مالي:

إضافة إلى مجهودات التجار الإباضية و غيرهم في نشر الإسلام بين أهالي مملكة مالي، فإن رحلات الحج و الرحلات التابعة للبعثات العلمية من بلاد المغرب و المشرق إلى مملكة مالي كان لها دور عظيم في ربط هذه المملكة بالأمة الإسلامية من الناحية الحضارية.

فبالإضافة إلى ما جلبه منسا موسى من رحلته الشهيرة إلى الحج، فان هناك بعثات علمية أرسلها منسا موسى و غيره من ملوك مالي إلى جامعات فاس و القرويين و الأزهر و الزيتونة والحجاز، من أجل تطوير معارفهم العلمية ليوظفوها في خدمة هذه النهضة عند عودتهم إلى بلادهم، فلقد وجد في جامع الأزهر رواق خاص بالطلبة الوافدين إليه من السودان الغربي يعرف برواق البرتية(2).

وما زالت الروايات الشفوية تذكر بأن الملك منسا موسى كان قد اشترى عدد من الدور لإيواء الحجاج والطلبة في كل من القاهرة ومكة المكرمة(3). حيث وجدت في القاهرة جالية هامة من الطلبة والفقهاء السودانيين منذ العهد الفاطمي، فقد اندمجوا داخل المجتمع السوداني وكان لهم حي خاص بهم يعرف ببولاق التكرور، وكانت هذه الجالية متجذرة بقوة في الميادين التربوية، الثقافية والدينية في مصر، وذلك بفضل العلاقات القوية التي كانت قائمة بين مصر المملوكية وإمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا موسى، لهذا كان بالمقابل عدد كبير من الفقهاء والتجار والقضاة المصريين قد انتقلوا إلى مالي(4).

---

(1) شعباني نور الدين، دور ملوك السودان في نشر الإسلام في السودان الغربي بين القرنين الخامس و العاشر الميلاديين، مجلة كان التاريخية، العدد الرابع عشر، ديسمبر 2011م، ص 47.

(2) شوقي عطاء الله الجمل: الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1988م، ص 44.

(3) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 176.

4) (Yattara el Mouloud , L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du 8ème au 16ème siècle. In site :

<http://www.histoire-afrique.org/article164.html?artsuite=6> consulté le : 20-07-2011



ويمكن أن نذكر الشيخ العالم أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري الذي درس في الأزهر وعاش في القاهرة أين كان ينشر علمه ومعارفه إلى غاية وفاته، لهذا وعرفانا له بمجهوداته في سبيل العلم والدين، قام المصريون ببناء فوق قبره قبة ومسجد سمي بمسجد التكروري، حيث قام المماليك البحرية بتجديده وتوسيعه عام 743 للهجرة / 1342م.

بالإضافة إلى الشيخ المصري الفقيه القاضي عبد الرحمان التميمي وهو جد القاضي حبيب والفقيه اندغ محمد الكبير، الذي جلبه الملك منسا موسى من الحجاز عند رجوعه من الحج وأسكنه مدينة تمبكتو، لكنه هذا العالم لما رأى عدد الفقهاء بتمبكتو ومستواهم العلمي الذي يفوق مستواه رحل إلى مدينة فاس وتعلم هناك وتفقّه على يد علمائها ثم رجع إلى تمبكتو. (1) كما زار موسى كاتب وهو الكاتب الشخصي لمنسا موسى مدينة فاس من أجل الدراسة وذلك بإيعاز وتشجيع من منسا موسى (2).

ومن الشخصيات التي اصطحبها منسا موسى معه عند عودته من الحج رفقة الفقيه عبد الرحمان التميمي رجل من عائلة الزعيم الموحيدي عبد المؤمن بن علي الذي يدعى المعمر والذي كان له دور بارز في تعليم الملك الشرع الإسلامي من خلال الخطوة التي كان يتمتع بها، ويلازمه دون بقية وزرائه وكبار رجال قومه (3).

إن الجهود التي قام بها منسا موسى في سبيل نشر الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية أكسبته مكانة دينية رفيعة لدى شعبه، فلم يعد مجرد إمبراطور فقط، وإنما تحول في نظر الشعب المندي إلى ولي من أولياء الله الصالحين. لذلك نقول بان ملوك مالي عموما ومنسا موسى بصفة خاصة لم يكتفوا بانبهارهم بالثقافة العربية الإسلامية والتأثر بها انطلاقا من تعلقهم بالدين الإسلامي وكل ما يرتبط به من لغة وسلوك وثقافة، وإنما استطاعوا أن يدخلوا الإمبراطورية كلها في هذه الثورة الثقافية العربية الإسلامية، رغم بعض الخصائص السودانية التي بقيت تميزها.

---

(1) السعدي(عبد الرحمان)، تاريخ السودان، طبعة هوداس، المكتبة الأمريكية الشرقية، ميزونوف، باريس، 1981، ص 47 و51.

(2) Cuoq(Joseph) , Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest (Des origines à la fin du 16ème siècle). Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1984 , p108.

(3) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 201.

## المحور الثاني

### المظاهر الحضارية لمملكة مالي

#### 1. في ميدان التعليم:

إن التعليم في مملكة مالي كان في البداية يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف<sup>(1)</sup>. لكن مع مجيء ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهاياً لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية.

وكان أساس التعليم الذي ركز عليه ملوك مالي يقوم على تعليم القرآن، الذي يعد أساس التعليم، وتدور حوله مختلف المناهج من لغة وفقه وتفسير وأصول وتاريخ<sup>(2)</sup>. وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم ملوك مالي القرآن وبعض شرائع الإسلام، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك<sup>(3)</sup>.

و يبدو أن مهمة هؤلاء المعلمين كانت تشمل تعليم ملوك مالي اللغة العربية، وهذا من خلال إجادة كل من منسا موسى وأخوه سليمان للغة العربية، رغم أنهما لم يكونا يتقنان حتى لغات ولهجات الشعوب التي يحكمونها، بحيث كانوا يتحدثون للوافدين عليهم من رعيّتهم عن طريق ترجمان<sup>(4)</sup>.

وقد تأثر التعليم في مالي بطبيعة التكوين الديني لهؤلاء المعلمين، حيث اقتصر على العلوم الدينية بالمدارس القرآنية التي تشبه الكتاتيب في بلدان المغرب العربي، والتي كانت

---

(4) Devey (Muriel) : La Guinée, Editions Karthala, Paris, 2009, p285.

(5) Raymond(Mauny) :Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge. Editions Ifan, Dakar, 1961, p528.

(3) قداح نعيم: حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ص 160.

(4) أنظر ابن بطوطة : المصدر السابق، ص 684.

تنتشر في المدن الكبرى كولاته، جني، تمبكتو، غاو، نياني وغيرها، والتي كانت تمثل صورة طبق الأصل لنظيراتها في مكة، الكوفة، القاهرة أو فاس<sup>(1)</sup>. فكانت تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيباً دينياً سليماً، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها، كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية<sup>(2)</sup>.

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلاً يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر<sup>(3)</sup>. كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة<sup>(4)</sup>. وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري<sup>(5)</sup>.

وبالنسبة لمرحلة التعليم الثانوي فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي، كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة<sup>(6)</sup>. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدرّس لهم منطق أرسطو ومقامات

---

(1) قداح نعيم: المرجع السابق، ص 160.

(2) باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

(3) Cuocq (Joseph) :Op.Cit. p91.

(4) انظر المصدر السابق، ص 691.

(5) البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق): فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة أولى، 1981م، ص 88 ؛ السعدي، المصدر السابق، ص 27 .

(3) باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)، المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، طبعة أولى، ص 105

الحريري<sup>(1)</sup>. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق<sup>(2)</sup>. وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة<sup>(3)</sup>.

بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تركية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزيينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن<sup>(4)</sup>.

وكان التعليم الجامعي يتم في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج<sup>(5)</sup>. وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه

---

(4) قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م، ص 161 .

(2) (Cuoq (Joseph) ,Op.Cit. p126.)

(3) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 161.

(4) باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

(5) معتز ياسين: جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 523.

حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها(1).

أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها(2).

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو أدركها حافلة بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها(3). كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى(4).

وعندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي(5). وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا

(1) باري(محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

(2) معتز ياسين: المرجع السابق.

(3) البرتلي الولاتي: فتح الشكور، ص 176.

(4) السعدي: المصدر السابق، ص 57 . . Yattara el Mouloud :Op.Cit

(5) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م، جزءان، ص 608.

سليمان التقي عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة<sup>(1)</sup>.

كما جذبت جامعة تمبكتو في عهد مملكة مالي بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ / 1323م) وهو والد ابن الملحن التكروري (توفي 804هـ / 1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة<sup>(2)</sup>. وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تضم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبلين في كاتسينا<sup>(3)</sup>.

## 2. نشرهم اللغة العربية :

لقد كان القرن الثامن للهجرة عصر القوة، وكذا عصر التعريب لإمبراطورية مالي، وذلك بفضل الجهود التي قام به منسا موسى من أجل نشر لغة القرآن في ربوع المملكة، والتي كانت تدرج ضمن مشروعه الثقافي الكبير الساعي إلى جعل إمبراطورية مالي ليس جزءا فقط من العالم العربي الإسلامي، وإنما عنصرا فعالا في حضارته. وكما اهتم بإرسال الطلبة إلى جامعات القاهرة وفاس، وحرص على جلب أمهات الكتب العربية إلى بلده، فإنه أسس عند عودته من الحج سنة 1325م/725هـ مدرسة في مدينة نياني لتعليم اللغة العربية والقرآن<sup>(4)</sup>.

فكان هذا الملك يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، وكان يداوم على قراءة القرآن باللغة لعربية، فقد أخبر ابن أمير الحاجب أبا الفضل العمري بان منسا موسى كان يجيد التكلم

(1) المصدر السابق، ص 681 .

(2) معتز ياسين: المرجع السابق.

(3) نفسه.

(4) قداح نعيم: المرجع السابق، ص 156.

باللسان العربي،<sup>(1)</sup> والأكيد أنه لما ذكر كلمة إجابة كان يعني بها الإتقان. وكانت مراسلات منسا موسى مع سلاطين المماليك بمصر بخط عربي تراعى فيه أصول وقوانين الأدب العربي، وكان يكتبها له خاصته من المالين.<sup>(2)</sup>

أما في عهد منسا سليمان فقد تحولت اللغة العربية إلى لغة رسمية للإمبراطورية المالنية إلى جانب اللغة المالنكية<sup>(3)</sup>. حيث انتشر في عهده الخط العربي وخاصة الخط المغربي الفاسي<sup>(4)</sup> الذي يكون قد جلبه معهم إلى مالي طلبة المشرق الذين درسوا في مصر، أو جلبه منسا سليمان نفسه عند عودته من الحج، كما انتشر أيضا الخط المغربي الذي انتقل إلى مالي عن طريق التجار المغاربة.<sup>(5)</sup> فمازالت المخطوطات التي احتفظت بها مدينة تنبكتو إلى اليوم والتي تعود إلى فترة القرن التاسع للهجرة، تشهد على انتشار هذا الخط .

ولقد ذكر السعدي قائمة طويلة للعلماء اللغة الذين كانوا مقيمين أو يدرسون في تمبكتو، منهم الشيخ يحيى التدلسي، وأبو عبد الله أندغمحمد بن الفقيه النحوي بن أندغمحمد إمام مسجد سنكري، وهو شهير في علم اللغة العربية، ومنهم السيد أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الله بن أبي يعقوب، وهو عالم فقيه ولغوي نحوي متقن في علوم الأدب<sup>(6)</sup>.

كما استخدم المالين مهنة الوراقة، وهي مهنة نسخ وبيع الكتب وهي من المهن المرتبطة بالثقافة العربية، فأصبح المالين يكتبون لغتهم المالنكية بالخط العربي.<sup>(7)</sup> بل عرفت لغة المالنكي وهي لغة عائلة كيتا وسكان النيجر الأعلى والتي أصبحت اللغة الرسمية للإمبراطورية مالي، دخول عدة كلمات عربية إلى قاموسها اللغوي، ونأخذ على سبيل المثال

---

(1) المصدر السابق، ص122.

(2) العمري، المصدر السابق، ص125.

(3) قداح نعيم: المرجع السابق، ص156.

(4) نفسه، ص156. . بوعزيز (يحي): تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية. دار هومة، الجزائر، 2001م، ص199

(7) قداح (نعيم): المرجع السابق، ص207.

(1) المصدر السابق، ص29.

(2) السعدي، لمصدر السابق، ص208.

كلمة "حورايا" وهي الحرية، و"باراكا" وتعني البركة أو القوة، وكلمة "تتين" التي يقصد بها يوم الاثنين<sup>(1)</sup>.

### 3. نشر المذهب المالكي:

وكانت أول هذه التأثيرات انتشار المذهب المالكي، الذي كان مذهب المغاربة بامتياز، وهنا يظهر لنا جليا التأثير المغربي بحكم الموقع الجغرافي وتأثير التجار المغاربة من الصنهاجيين في نظرائهم الماليين، بالإضافة إلى دور المرابطين في نشر المذهب السني المالكي. كما كان الأزهر وطلبته دور كبير في نشر هذا المذهب في إمبراطورية المندينج، فقد كان الأزهر يقوم على المناداة بمذهب السنة<sup>(2)</sup>، كما أن مدرسة ابن رشيق التي بناها الكانميون وكان يدرس فيها الطلبة المالئون كانت تدرس الشريعة وفق المذهب السني المالكي<sup>(3)</sup>. فلقد كان منسا موسى مالكيًا متشدداً، حيث حرص عند عودته من الحج على جلب معه الفقهاء والكتب على مذهب الإمام مالك<sup>(4)</sup>.

ولما حج أخوه من بعده الملك منسا سليمان سنة 1351م / 751 هـ، قرر استغلال فرصة تواجده بمصر لشراء عدد من الكتب لتدعيم مكتبات الإمبراطورية، وخاصة تلك الموجودة بمدينة تمبكتو وذلك لتعويض ما خربه وحرقه الموسي خلال هجومهم عليها، فكانت الكتب التي جلبها تضم كتب المذهب المالكي<sup>(5)</sup>. وعند وصول منسا موسى إلى القاهرة خلال رحلته إلى الحج سنة 724 هـ / 1324م، أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المهمندار في طلبه، وطلب منه السجود وتقبيل الأرض رفض منسا موسى ذلك وقال للترجمان الذي كان يكلمه: «أنا مالكي المذهب، ولا اسجد لغير الله»<sup>(6)</sup>. وبالتالي فقد أصبح

---

(3) Camara(Mamadou) : Parlons Malinké. Editions: L'harmattan, Paris, 1999, p20.

(2) شوقي عطاء الله الجمل: الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1988م، ص12.

(3) الفلقشندي: المصدر السابق، ص281.

(4) العمري: المصدر السابق، ص107.

(5) Yattara el Mouloud :Op.Cit.

(6) المقرئزي: الذهب المسبوك، ص142.



المذهب السني المالكي هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ومعتقيه يدعون "توري" بلغة المالكي(1).

ورغم هذا الحرص الذي كان يبديه منسا موسى على التمسك بمذهب مالك ومحاولة إشهار ذلك خلال سفرياته إلى الخارج، إلا أن مملكة مالي لم تكن بمعزل عما كان يعرفه العالم الإسلامي وخاصة المغرب الإسلامي من اختلاف مذهبي، حيث يذكر لنا ابن بطوطة بأن الإمبراطورية المالية التي زارها في عهد منسا سليمان، كان يوجد بها المذهب الخارجي لكن يبدو أنه لم يكن بالأهمية البالغة، بحيث يكون قد اقتصر على قرية زاغزي التي يسكنها التجار السوننكي من الونغارا ومعهم جماعة من البيضان يتمذهبون بالمذهب الإباضي ويعرفون بصغغو(2).

وعموما فإننا لم نصادف أي مصدر تكلم عن وجود المذهب الإباضي في مملكة مالي باستثناء ابن بطوطة، كما أنه يظهر من شهادة هذا الأخير أن هذا المذهب اقتصر وجوده على قرية صغيرة مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن سكان هذه القرية كانوا يشكلون بقايا تأثير الفقهاء الإباضية من التجار الذين كان لهم نشاط قوي خلال القرن الخامس للهجرة/11م، والذين كان لهم أثر بارز في اعتناق ملوك مالي الأوائل للإسلام. لكن نشاط أولئك الدعاة الإباضية كان خلال القرن الرابع والخامس للهجرة/10 و11م، وهي فترة لم يكن الإسلام قد تغلغل في المجتمع المندي، وكان إسلاما سطحيا، بينما شهد القرن الثامن للهجرة وهو عصر منسا موسى وأخوه سليمان نهضة ثقافية وتفتح مالي على العالم الإسلامي، وخاصة المراكز العلمية المالكية السنية كالأزهر وفاس.

لهذا نقول بأن منسا موسى قد افلح في جعل المذهب السني المالكي، هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ونشير إلى أنه رغم تردد منسا موسى على مصر، والعلاقات التي كانت تربطه بعلمائها، وملوكها، إلا أنه لم يتأثر بالمذهب الشافعي الذي كان مذهب المماليك بمصر، وهو ما يُفسّر بمدى تأثير العلماء والفقهاء المغاربة في الثقافة الدينية لمالي، ومدى

---

(1) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 680.

(2) نفسه، ص 680.

تمسك ملوك مالي بالمذهب المالكي، بالإضافة إلى محاولة إظهار استقلالهم المذهبي عن مصر<sup>(1)</sup>، بينما لم تتكلم المصادر عن أي أثر للمذهب الشيعي في مملكة مالي.

#### 4 . انتشار التأليف و القراءة في مملكة مالي:

شهدت مملكة مالي نشاطا تأليفيا واضحا، ساهم فيه للعلماء الذين عجت بهم جامعاتها في مختلف الميادين، و هناك أيضا تأليف أخرى لقيت رواجاً في السوق العلمية المالية و انتشرت منها عقائد السنوسي التي لاقت قبولا واهتماما كبيرين من طرف الطبقات المتعلمة في مالي، حتى أصبحت تذكر في معظم المقدمات الكلامية لعلم الكلام، حيث كان الشيخ الشيخ السنوسي يحظى بمكانة عظيمة لدى علماء تنبكتو و جني، وكان يعد مؤسس المدرسة الأشعرية التي اشتهرت بالاجتهاد في تلمسان، لهذا عكف علماء وطلاب مالي على دراسة مصنفات السنوسي فنالت اهتمامهم وحازت على إقبال كبير عندهم، فكانت كتبه تعتمد في الحلقات العلمية في جامعات جنجربير وسنكاريه، فحفظوها و فهموها و نسخوها، و لعل أكثر كتبه انتشارا عندهم هي العقيدة الصغرى المسماة بـ "أم البراهين" التي زودها بشروح ومختصرات وتعليقات، كان أشهر من درّسها في تنبكتو الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري المعروف باسم بغيغ، و أخذها عنه تلميذه أحمد بابا حيث قال في ذلك : « وختمت عليه...صغرى السنوسي »، وقرأ عليه "الكبرى" وشرحها في قوله: « وحضرت عليه الكبرى وشرحها»<sup>(2)</sup>، ومن العلماء الذين وضعوا عليها شرحا نجد أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت تحت عنوان "شرح السنوسية الصغرى"، و أحمد بابا التنبكتي بعنوان « شرح الصغرى للسنوسي»<sup>(3)</sup>.

كما انتشرت في تنبكتو مصنف محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في علم المنطق و خاصة مصنفه المسمى: «منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب» ،الذي كان يدرس للطلبة الماليين في حلقات التدريس بتنبكتو ، والتي عرفت عند علماء تنبكتو بمنظومة

---

(1) الشكري (أحمد)، الإسلام و المجتمع السوداني(امبراطورية مالي) 1230 . 1430، المجمع الثقافي، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 1999م، ص 229.

(2) أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج من ليس في الديباج، ج2، تحقيق: محمد مطيع، المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2000م، ص282

3 نفسه، ص602.

المغلي في المنطق<sup>(1)</sup>، و عرفت أيضا باسم رجز المغلي في المنطق<sup>(2)</sup>، حيث كان يدرسها الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري ودرسها أحمد بابا التنبكتي على يد شيخه حيث يقول: «وقرأت عليه رجز المغلي في المنطق»<sup>(3)</sup>.

كما ترك كتابا غاية في الأهمية و هو كتاب ما يجب على الملوك و السلاطين والذي يعد مرجعية سياسية لملوك السودان كان قد قدمه لسلطان كانو محمد رمفة، و تضم ثمان أبواب وهي مجموعة من التوصيات و المبادئ التي لا بد أن يتبناها اي حاكم يحكم بالشريعة الإسلامية<sup>4</sup>، حيث كتبه بطلب من سلطان مملكة كانو في بلاد الهوسا الذي زاره المغلي وقرّبهُ إليه عين كمستشار خاص للملك، و طلب منه السلطان محمد رمفا مجموعة من النصائح التي تجيز للحاكم ردع الناس عن الحرام، فكتب إليه رسالة تضم مجموعة من النصائح التي تضم تنظيم شؤون الإمارة و الحكم<sup>5</sup>. و لقد انتشرت هذه الوصايا و هذه الرسالة في كامل بلاد الساحل و غرب إفريقيا لدى الحركات الإسلامية التي ظهرت خلال العصر الحديث و اتخذها زعماء هذه الحركات دستورا لهم.

كما لقي كتاب أبي العباس يحيى الونشريسي التلمساني (المتوفى سنة 914هـ /1508 م) المعروف بـ «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب» رواجاً في منطقة الساحل و بالخصوص تنبكتو، حيث قام احمد بابا التنبكتي بترتيبه حسب المواضيع و الأبواب<sup>6</sup>.

و يذكر عبد الرحمان السعدي ان مدينة جني و هي إحدى مدن مالي المشهورة، خلال القرن السادس للهجرة كانت تضم 4200 عالم<sup>7</sup>، و رغم ان هذا العدد مبالغ فيه لكننا نرجح

---

(1) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص142.

(2) نفسه، ص606.

(3) نفسه، ص602.

(4) انظر: محمد بن عبد الكريم المغلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك و السلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الاولى، دار ابن حزم للنشر و التوزيع، بيروت ، 1994م.

(5) ميروك مقدم، مرجع سابق، ص37.

(6) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 602.

(7) تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 11.

انه هذا العدد المقصود به حملة القران و الراتبون و القراء، و هو عدد لا يستهان به ويعبر عن ارتفاع عدد المتعلمين في مدن مالي خلال هذه الفترة.

## 5. دور مالي في العمران الإسلامي .

استطاع ملوك مالي ترك بصماتهم الفنية في المجال العمراني، حيث تميزت عن غيرها من الممالك الإسلامية في إفريقيا في هذا المجال، فتمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، و هو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي المغربي و يحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كاف بسيطا تميزه البناية ذات السقف المستدير، كذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبنى بالطوب، ونادرا ما كانت تتخللها الحجارة، كما توجد بالقرب من البيت زريبة لتربية الماشية (1). فكانت العاصمة نياني في عهد سوندياتا كيتا مبنية مساكنها بالطين، وكانت سقفها مصنوعة من القصب .وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيدان الأشجار كحشائش النباتات، أما في مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان و هو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن (2) .

لكن بوصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324 ، تعرف على مهندس وشاعر أندلسي هو أبا إسحاق الساحلي المدعو بالطويجن ، فاصطحبه معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني (3). ككاف مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، و هو أمير من ولد عبد المؤمن

---

(1) عبد القادر زبادية :الحضارة العربية ك التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 ، ص5 .

(2) Raymond Mauny, Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Librairie Fayard, 1970, p160.

(3) أبو العباس الناصري السلاوي :الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق و تعليق :جعفر و محمد الناصري ،مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1954 ، ج2 ، ص ص75 .

بن علي زعيم الموحدين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس (1) وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمّر اندهائه لوضعية مسجدها المتّديّة، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفترة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش، حيث ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت في ذلك الوقت مبنية كل سقوفها بالأخشاب كالقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمّل (2)، لذلك نبه منسا موسى إلى هذه البناية التي لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، و لا ترقى إلى مقام الإمبراطور أيضا، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان مايزال يطغى على بنايات و مساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة و لا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش (3). وطلب هذا الأمير الموحي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنازة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالأجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان. (4)

وبهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس. فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة مع بعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان

---

(1) عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة 2000م، ج 6، ص 267.

(2) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، المصدر السابق، ص 111.

(3) قداح نعيم: المرجع السابق، ص 112.

(4) Delafosse (Maurice) et Mouralis (Bernard) : Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005, pp 22 et 23 \_ Delafosse (Maurice) : Haut Sénégal-Niger, tome 2, p189.

يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثلثي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.<sup>(1)</sup>

ولعل أهم ما أبهر الماليين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استقرغ فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسها باثنتي عشرة ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.<sup>(2)</sup>

إن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذ كانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،<sup>(3)</sup> ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان، وبالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاو، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة /11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.<sup>(4)</sup> فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضلها

---

1(Ogunsolo(John Igué), Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36.

(2)ابن خلدون:المصدر السابق، ج 6، ص 268 . السلاوي:المصدر السابق،152 .

(3)ابن قربة(صالح): المنذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص 99، 100.

(4)السعدي: المصدر السابق،ص ص 20، 21 .

أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك (1)، فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين. (2)

وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين. (3) وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر (أي المسجد الكبير)، وظل قائماً لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة تمبكتو. (4) حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي. (5) وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلاً من قبل ولم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها (6)، مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحدائته بالنسبة للسودان الغربي. وازداد اهتمام منسا

---

1(Cornevin(Robert et Mariane):Histoire de l'Afrique, des origines à la deuxième guerre mondiale,p164.

(2)السعدي: المصدر السابق، ص 87 .

(3) يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 995هـ/1583 و1587م وبنا مكانه مسجداً آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيرّ الجميع مسجداً، وزادها زيادة كبيرة. ( تاريخ السودان، ص 56 ).

4(Cornevin(Robert et Mariane):Op.Cit, p164.

ينكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى إلى مستوى حتى تلك القبور و الأضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جني القديم. Dubois (Felix):Timbuctoo the mysterious.Translated from the french by : Diana White, New York, 1896, p275.

5(Ogunsolo(John Igué) ,OpCit, p41.

6(Dubois(Felix) ,Op Cit,p275.

موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه، حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجداً في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري، كوندام، ديرى، وانكو ومسجد باكو. (1)

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سوندياتا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو (Banco) باحترافية كبيرة، (2) كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي (3) الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي. فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة، أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كأسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طريق سلّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكل سطحاً صغيراً محاطاً بجدران مرتفع قليلاً، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات (4). بالإضافة

---

(1) Mahmoud kati ,OpCit, p56.

(2) Niane djibril temsir , Le soudan occidental,p134.

(3) يعتقد الأستاذ عبد القادر زيادية بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107).

(4) Niane djibril temsir : Le soudan occidental, p130.



إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجا حقيقيا للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية<sup>(1)</sup>.

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضا زاخرا بالإنجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصا على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضا على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام.<sup>(2)</sup> مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولا وعرضا،<sup>(3)</sup> وجعل بنياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل.<sup>(4)</sup>

وعموما فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس وموراليس،<sup>(5)</sup> قد أفرزت طرازاً معمارياً يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازاً سودانياً خالصاً وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجوداً في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.<sup>(6)</sup>

---

(1) قداح نعيم: المرجع السابق، ص 147 .

(2) المصدر السابق، ص 690 .

(3) البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23 كيلومترا

**Mauny (Raymond) :** les siècles obscurs, . Librairie Fayard, 1970. p160.

(4) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 150 .

(5) **(Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard) :** Les Nègres, Editions l'harmattan, Paris, 2005. p23.

(6) **(Trimingham (Spencer) :** The history of Islam in west Africa. Oxford university press, London, 1963, p69.

## المحور الثالث

### دورها في التنمية الاجتماعية و اقتصادية .

لقد ساهمت مملكة مالي أيضا في التنمية الاجتماعية و الاقتصادية، من خلال التنظيم الاجتماعي و الاقتصادي الذي أدى إلى تنمية الفرد و المجتمع المالي من حيث ظروف الحياة او من خلال نمط العيش و الرفاهية، بالإضافة إلى تطور الإنتاج.

#### أولا: التنظيم الاقتصادي:

وضع سوندياتا كيتا نظاما و مشروعا حضاريا متكاملا لمملكة مالي، حيث ساهم الجانب الاقتصادي منه في تنظيم الحياة الاقتصادية ونجاحاتها مما انعكس على الفرد المالي بالفائدة ، حيث عمد إلى توظيف ثروات كل منطقة من مناطق الإمبراطورية في الرفاهية الاقتصادية للدولة، واستغلالها بطريقة عقلانية وبرجماتية. فالغرب خصص لإنتاج المواد الغذائية والزراعية، والوسط خصص لإنتاج الحديد، بينما كان الشمال يزود الإمبراطورية بالملح، ويبقى الجنوب وغاباته مصدرا لجلب البطاطا، ونواة الكولا، ومختلف الدرنيات(1).

ولقد كانت إمبراطورية مالي تعاني كثيرا من نقص الملح، وكانت هذه المادة تتواجد في منطقة الساحل بالشمال أين تسيطر على مناجمه القبائل البربرية. كما انه بعدما ألغى سوندياتا تجارة الرقيق، فإنه لم يعد ممكنا مقايضة هذه المادة بالعبيد، لذلك كان عليه أن يستغل ثروات البلاد والبحث عن مصادر أخرى للتجارة بها ومقايضتها بالملح عوض العبيد. ولما كانت أرض مالي غنية بالذهب، فقد دعا سوندياتا في خطابه الذي ألقاه عند الإعلان عن ميلاد الإمبراطورية إلى ضرورة البحث عن مناجم الذهب واستخراجه من أرض مندن التي تزخر به(2).

أما بالنسبة لمعدن الحديد، فقد أوكل مهمة استخراجه وصناعته إلى الأسرى الصوصو المعتقلين خلال حرب كيرينا، حيث أمر سوندياتا بتسخيرهم للخدمة في الأفران الكبرى

---

(4) Rosa Amelia plumelle - Vribe : Traite des blancs traite des noirs : Aspects méconnus et conséquences actuelles. Editions l'harmattan,( paris, 2008, p50).

2)(Youssof tata cissé et Wa kamissoko :La grande geste, tome 2,p28

للحدادة والتعدين التي تعد مهنتهم الأصلية، وذلك تكفيرا عما قاموا به ضد مالي، لكنه حرص على أن يعاملوا معاملة طيبة للمتزمين بعملهم<sup>(1)</sup>.

وقد ركز سوندياتا كثيرا على تنشيط التجارة التي اعتبرها الشريان الحيوي للأمة من خلال تنشيط تجارة الذهب<sup>(2)</sup> وتنظيم التجارة النهرية، لكنه وجه اهتماما خاصا للنشاط الزراعي، حيث أدخل إلى مالي زراعة القطن والفسق وشجرة البابايا أو المانغو<sup>(3)</sup>. كما عرفت الإمبراطورية إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا<sup>(4)</sup>. هذا وقد اهتم سوندياتا كثيرا بتطوير أساليب تربية المواشي والرعي<sup>(5)</sup>.

وهكذا فقد عمل سوندياتا طوال فترة حكمه التي دامت 25 سنة حسب ابن خلدون<sup>(6)</sup>، وواحد وعشرون سنة – حسب دولافوس<sup>(7)</sup> – على تأسيس إمبراطورية واسعة، وتدعيم أركانها، وتعزيز الوحدة الوطنية، و حماية ترابها وشعبها. كما حرص على إسماع صوت مالي الجهات الأربعة من العالم كما جاء في خطابه الشهير الذي ألقاه بعد تنصيبه منسا لكل مندن<sup>(8)</sup>، وكان له الفضل في ارتقاء عائلة كيتا عندما حصر الحكم في مالي على ذريته من آل كيتا. وبهذا يكون قد حجز لهذه العائلة مكانة في تاريخ مملكة مالي الإسلامية، وسمح لأبنائها بصناعة مجد لم يكن حكرا على مملكتهم، وإنما بقي ذخرا لكل الأفارقة السود

---

1)Ibid,p28

2)Al hassane chérif :L'importance de la parole chez les Mandingues de Guinée. Etudes Africaines, Collection dirigé par Denis pryer. Edité par l'harmattan, paris, 2005, p29.

3)Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32

4)Rosa amelia plumelle – Vribe : Op.Cit, p51

5)Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32

(6).العبر، مج6، ص267

(7)يحددها دولافوس بواحد و عشرين سنة على اعتبار أن بداية حكمه حسبه كانت في عام 1234م/631هـ، أي عندما

استدعاه نبلاء مندن لقيادتهم في الحرب ضد مملكة الصوصو . بينما توفي حسبه سنة1255م/652هـ.-Haut Sénégal-

Niger, t2, p28)

(7)Youssof tata cissé et Wa kamissoko :La grande geste, tome 2,p28

فيما وراء الصحراء، ذلك أن هذه العائلة ورغم رحيل زعيمها الأكبر سوندياتا، إلا أنها خلفاءه من بعده استمروا في توطيد أركان الدولة وتوسيع حدودها، وإرساء دعائمها إلى أن بلغت أوجها، إلى غاية بداية القرن الثامن للهجرة/14م.

أما في عهد ملوك مالي الذين خلفوا سوندياتا فقد استغلوا موقع مملكتهم في منطقة النيجر الأعلى الغنية بشبكتها الهيدروغرافية، وتربنتها التي تتشكل من مزيج من الحجر الرملي وأكسيد الحديد والغضار وحجر الصوان، مما يمثل عامل مهم في الحفاظ على البقايا النباتية والحيوانية والدبال، ويسمح بزراعة الذرة، البطاطس، الدخن، الفاصوليا والأرز، كما أن مناخها اللطيف وأمطارها التي تسقط خلال ستة أشهر من السنة (من شهر ماي إلى شهر أكتوبر)<sup>(1)</sup>، كلها عوامل هيأت المملكة لتكون بلدا زراعيا، لكن تحكم جماعة كيتا الصيادين في زمام الأمر بكنغابا منذ وقت مبكر جعل المملكة تشتهر بحرفة الصيد كنشاط اقتصادي أول. لكن إدراك سوندياتا كيتا فيما بعد أهمية الزراعة بالنسبة لأمتها المندية، جعله يعمل على إدخال محاصيل زراعية أخرى، فقد أدخل إلى مالي زراعة القطن والفسق وشجرة البابايا أو المانغو<sup>(2)</sup>، كما عرفت الإمبراطورية بفضلها إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا.<sup>(3)</sup> وبذلك بدأت المملكة تهتم بالزراعة، فوضع دستور مندي الشهير بكوروكان فوكا قوانين صارمة خاصة بتنظيم العمل الزراعي، ومحاربة ظاهرة هروب العمال من الحقول، وأتخذت إجراءات خاصة بمكافحة شرود الدواب خلال موسم الزرع والحراث، حيث يمسكون بها ويعيدونها إلى رئيس القبيلة.<sup>(4)</sup> وقد طبقت هذه القوانين بصرامة في عهد سوندياتا، وفي عهد خلفائه الأوائل من بعده، بل تحولت مع مرور الوقت إلى تقاليد ثابتة لا تتغير مع تغير الأنظمة والحكومات.

ورغم أن المصادر الخاصة بتاريخ مالي لم تترك لنا تفاصيل دقيقة حول النشاط الزراعي وتقنياته، وطبيعة ملكية الأراضي والسياسات الزراعية المطبقة، إلا أننا نستطيع أن نفهم من

1) (Dr Colomb : Les populations du haut Niger, p2.

2) Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32

أنظر أيضا: الشارف محمد : إمبراطورية مالي. مقال نشر في الموقع الإلكتروني: <http://www.islamichistory.net>.

الاطلاع عليه في جويلية 2006.

3) (Rosa amelia plumelle Vribe : traite des blancs traite des noirs, p51.

4) ( CELHTO :La charte de Kurukan Fuga, p20 .

كلام العمري عند قوله ((ولأمراء هذا الملك وجنده إقطاعات وإنعامات) (1) بأنه كان للأمراء والجنود أراض خاصة بهم. كما نجد في نفس المصدر بأن الملك منسا موسى قد وضع قوانين صارمة في مراقبة وحماية الإنتاج الزراعي من السرقة، حيث كان المالئون يزرعون شيئاً يشبه البطاطا يعرف عندهم باسم القافي الذي كان يزرع في الخلاء، ولكن إن أُبلغ الملك بأن أي أحد قد سرق منه شيئاً عاقبه بقطع رأسه وتعليقه في المكان الذي قطع فيه حتى يكون عبرة لغيره، ولا تنفع مع هذا الفعل أية شفاعاة لدى الملك. (2) وبالتالي فإننا نستنتج من كلام العمري شيئين مهمين هما:

**الأول** هو أن الملك كان يراقب النشاط الزراعي عن قرب، بل وييدي صرامة كبيرة في دعم الفلاحين وحماية إنتاجهم.

أما **الأمر الثاني** فهو أن حرص الملك على معاقبة سارقي منتج القافي، وحرص الموظفين على إطلاعه بأمر السرقة رغم أنه يبدو تافها أمام أمور الإمبراطورية التي تشغله، وهو ما يقودنا إلى الاعتقاد بأن تلك الأراضي التي كان يزرع فيها هذا المحصول، والتي قال عنها العمري بأنها أراضي موجودة في الخلاء يمكن أن تكون أراض خاصة بالملك وحاشيته، أي أراضي إقطاعية.

وبهذا يمكن أن نقول بأن تدخل الملك في النشاط الزراعي قد ارتبط بأهمية الزراعة في توفير الأمن الغذائي للدولة وفي تموين جيشها العظيم، إلى درجة أصبح فيها الملك ينتظر موسم جني المحاصيل لتقييم مدي خضوع الفلاحين لسلطته وقياس مدى ولائهم له. حيث كان يتعين على الفلاحين خلال حلول موسم جني المحاصيل تقديم فروض الطاعة والولاء، وإظهار درجة وفائهم للملك من خلال تقديم باكورة الإنتاج إليه، وأن عدم الالتزام بذلك يفسّر على أنه خروج عن المنسا وعصيان له. (3)

---

(1) المصدر السابق، ص 116 .

(2) العمري: المسالك، ج4، ص 111.

(3) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص175 . نشير إلى أنه في القديم كان المندي يقدمون جزء من باكورة إنتاج البطاطا لرئيس القبيلة كمظهر من مظاهر الاحترام .

ومجمل القول فإن مملكة مالي كانت تنتج عددا متنوعا من المحاصيل وخاصة الحبوب التي يتقدمها الأرز ونبات آخر يعرف بالفوني،<sup>(1)</sup> وكان الأرز يزرع في أودية نهري النيجر والسنكراني، بالإضافة إلى مناطق السنغال وغمبيا، كما كان يزرع الدخن أو الذرة في التربة الجافة في السهول.<sup>(2)</sup> أما الشعير فهم منعدم لديهم ولا ينبت أبدا. ويزرع المليون أنواعا عديدة من الخضر كالفصوليا والقرع واللفت والبصل والثوم والباذنجان والكرنب والملوخية، أما الفواكه فهي متوفرة بأنواع شتى، فمنها الجميز وأشجار غير معروفة إلا عندهم مثل شجر يسمى نادموت، وآخر يسمى زبيزور تشبه ثماره ثمار الخروب، وشجر يسمى شومي ثماره شبيهة بالسفرجل، وطعمه قريب من طعم الموز، وشجر اسمه فاريتي وهو شبيه بالليمون وطعمه شبيه بطعم الكمثري.<sup>(3)</sup>

أما فيما يخص تربية المواشي والأغنام فإنها كانت مزدهرة أيضا في مالي، وكان كل شعب يهتم بنشاط حيواني معين ويختص فيه، بحيث كان شعوب السهول كالفلاته ينفردون بتربية الماشية، وخلال القرن الرابع عشر للميلاد/الثامن للهجرة، أصبح معظم الريفيون في نهر النيجر يمارسون تربية البقر والأغنام والماعز،<sup>(4)</sup> لكن يظهر بأن عملية الرعي لم تكن منظمة ولم تكن تتم في مراعي معينة، وإنما كانت ترعى على القمامات والمزابل. ورغم ذلك فإن إنتاجها كان وفيرا بحيث كانت تلد الواحدة منها في بطن واحد سبعة وثمانية صغار.<sup>(5)</sup> كما كان الصيد تمارسه جماعات عريقة مثل السومونو في أعالي النيجر، والبورزو في حوض النيجر الأوسط والسوركو في بلاد سنغاي.<sup>(6)</sup> وقد لخص ابن بطوطة هذه الرفاهية الغذائية وحالة الرخاء من لأمن الغذائي التي حققها أحفاد سوندياتا، في قوله بأن المسافر في بلاد مالي لا يحمل زادا ولا غذاء، وكلما وصل إلى قرية استقبلته النساء السودانيات باللبن والدجاج ودقيق الأرز والفوني ودقيق اللُّوبياء فيشتري ما أحب منه.<sup>(7)</sup>

(1) العمري: المصدر السابق، ص 111 .

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 175 .

(3) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 113 .

(4) نفسه، ص 175 .

(5) العمري: المصدر السابق، ص 113 .

(6) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 175 .

(7) المصدر السابق، ص 680 .

## ثانيا: في الميدان التجاري:

يقول المؤرخ الإنجليزي جون فيج بأن إمبراطورية مالي قامت من خلال الزعيم سوندياتا وأسلافه من آل كيتا بنفس الدور التجاري الذي قامت به إمبراطورية غانة، ألا وهو السيطرة على التجارة الرئيسية في كل السودان الغربي، إلى درجة انه أصبح فيها المؤرخون يخلطون بين الإمبراطوريتين.(1)

إن هذا الكلام لا يجب أن يُفهم على أن مالي لم تقم سوى بوراثة دور سالفها غانة في السيطرة على المراكز التجارية الهامة بين الشمال وبلاد السودان وكذا مناجمها المعدنية الثمينة، ذلك أن ملوك مالي بدء بسوندياتا ومرورا بخلفائه من بعده، حوّلوا المكاسب المادية لهذه التجارة إلى تدعيم قوتهم العسكرية وفرض الأمن الأكبر مساحة للتجار، مما مكّنهم من توسيع سيطرتهم التجارية التي جعلت من مملكتهم إمبراطورية عسكرية وسياسية وتجارية أيضا، كما ساهمت القوة العسكرية المالية في فرض سيطرتهم على مناجم الذهب في بوري والذي يعد أهم سلعة في التجارة بين جنوب وشمال الصحراء.(2) كما عملت توسعات منسا موسى العسكرية خلال القرن الرابع عشر للميلاد/الثامن للهجرة، على تقريب المملكة من المراكز التجارية في الشمال كولاته ومن مناجم النحاس في تاكده.(3) وكذا سيطرتهم على المحطات التجارية الهامة لقوافل الطوارق كتوات وتمنطيت.(4)

ومن العوامل التي ساعدت خلفاء سوندياتا على السيطرة على تجارة السودان الغربي هو معدن الذهب الذي كان في وقت سابق يمول الأسواق في كل إمبراطورية غانة خلال القرنين الرابع والسادس الهجريين/10و12الميلادي، والذي بقي يشكل أهم مصدر للدخل بالنسبة لأسواق إمبراطورية مالي خلال القرنين السابع والتاسع الهجريين/13و15م.

لكن الشيء الذي تغير في عهد قوة خلفاء سوندياتا، هو أن إمبراطوريتهم كانت تسيطر على مساحات أوسع من تلك التي كانت بحوزة إمبراطورية غانة، وبالتالي كانت لديها

(1) تاريخ غرب إفريقيا، ص 53.

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 176.

(3) جون فيج: المرجع السابق، ص 55.

(4) أنظر ابن خلدون: العبر، مج7، ص 118.

مصادر أكثر، فمع بداية القرن الثامن للهجرة/14م بدأت مالي تتوسع في الدلتا الداخلية للنيجر في منطقة جاو وفي إمارات سنغاي الشرقية، مما أضاف دفعا قويا ومصدرا جديدا لتجارة العبيد وزيادة في مداخيل الضرائب الناجمة عن مراقبة تجارة القوافل.<sup>(1)</sup> كما استفاد أحفاد سوندياتا ومملكتهم من تحوّل الطريق التجاري الصحراوي من الغرب (وهو الرابط بين ولاته ومراكش مروراً بسجلماسة) إلى الشرق (وهو الرابط بين تمبكتو وزويلة أو بين تمبكتو والبنهاسا بمصر مروراً بتادمكة ووركلان)، وذلك بسبب اندلاع الثورة الموحدية بالمغرب الأقصى والتي انتهت بسقوط الدولة المرابطية،<sup>(2)</sup> وقد ساعد على هذا التحول شرقاً في التجارة الصحراوية عندما أصبح إنتاج الذهب يتم من الجهة الشرقية لحوض النيجر الأعلى، بالإضافة إلى كثرة حوادث قطع الطريق بين ولاته وسجلماسة، ومنه برزت أهمية مالي والتجار الماليين الذين أصبحوا ينافسون التجار المغاربة.<sup>(3)</sup>

إذن فالقوة العسكرية لمالي لم تكن العامل الوحيد في سيطرتها التجارية، ذلك أن سيطرة مالي على التجارة ضمن مجالات واسعة جداً لمدة تزيد عن القرنين<sup>(4)</sup> ساهم فيها العنصر البشري بشكل ملحوظ جداً، فالتجارة السودانية بشكل عام كانت تسيطر عليها ثلاث جماعات عرقية هي المندي، الهوسا واليوروبا، وكان المندي الذين يتشكل منهم أغلبية الشعب المالي يتفرعون بدورهم إلى ثلاثة فروع هي الديولا، الونغارا والداندي. وكان الديولا وهم المالنكي التجار يمارسون التجارة على مستوى منطقة فولتا العليا وساحل العاج الحاليين، أين كانوا يراقبون تجارة الكولا والذهب الذي يستبدلونه مع الملح في مناطق بوندوكو، بونا وكونغ.<sup>(5)</sup> ولعل الشيء الذي يميز الديولا عن غيرهم من المالنكي هو أنهم لم يسكنوا إلا

---

(1) Tidiane N'diaye : La longue marche des peuples noirs, pp31, 32. Conrad(David) : Empires of medieval West Africa : Ghana, Mali, and Songhay, p40.

(2) انظر ابن عذاري: البيان المغرب. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ/1985م، الجزء الرابع (قسم الموحدين)، ص16 وما يليها.

(3) عز الدين عمر موسى: دراسات إسلامية غرب افريقية. دار الغرب الإسلامي، طبعة ثانية، 1424هـ/2003م، ص 64، 65.

(4) وتمتد هذه الفترة من انتصار معركة كيرينا عام 1235م إلى بداية التواجد البرتغالي في المنطقة مع نهاية القرن الخامس عشر للميلاد.

(5) Igue(John) : Le territoire et l'état en Afrique. Les dimensions spatiales du développement. Editions Karthala, Paris, 1995, p158.



المدن، بعيدا عن الأهالي المزارعين الوثنيين،<sup>(1)</sup> وربما هو الشيء الذي سمح لهم بتشكيل مجتمع ديني وتجاري، وجعلهم أكثر تفتحاً على التجار المسلمين القادمين من شمال الصحراء فاحتكوا بهم، وسيطروا بذلك على المركز التجارية الشمالية.

لهذا كان الديولا يمثلون أكبر لوبي تجاري خلال فترة ازدهار مملكة مالي، فسيطروا على نشاط تجاري يمتد من الغابات التي كان يسكنها الوثنيون، وجلبوا إلى الشمال الذهب من منطقة بوري، بامبوك و بوندوكو، بالإضافة إلى مناجم بلاد الاشنتي. حيث كان تجار ديولا وحدهم الذين يمتازون بثقة سكان الغابات، ولا يسمحون لغيرهم بالاقتراب من مناجم الذهب، كما كانوا يجلبون نبات الكولا، بينما كانوا يحملون من الشمال إلى الجنوب قطع النسيج والمصنوعات الزجاجية والجلود المدبوغة وألواح الملح التي كانت تجلب من الملاحات الصحراوية كأوليل أو (ترارزة)، وإيجيل وتغازة.<sup>(2)</sup> أما الونغارا فكانوا يتركزون في بلاد الأشانتي حول منطقة كينتامبو (Kintampo) و أتيبوبو (Atebubu)، وذلك من أجل مراقبة تجارة الكولا والذهب.<sup>(3)</sup>

ومع حلول القرن الثامن للهجرة/14 من تمكن الونغارا من الوصول إلى أسواق وملاحات الصحراء وهو نشاط يدل على تطور المبادرة التجارية لهؤلاء الونغارا، وقدرتهم على منافسة تجار الصحراء القادمين من بلاد المغرب ومصر، فعمل وصول التجار الماليين إلى مملحة تاغزة على تخليص إمبراطوريتهم من الضغط الذي كان يمارسه عليها بربر مسوفة باحتكارهم لتجارة الملح.<sup>(4)</sup> بينما كان الدندي يتركزون في الشرق أين أسسوا مدينة كاندي، وجوكو في البنين الحالية، وكانوا يهتمون بتنظيم الأسواق ويوفرون مؤسسات لاستقبال للقوافل التجارية.<sup>(5)</sup>

---

(1) Delafosse(M) : Haut Sénégal-Niger, tome1, p280.

(2) Sory (Kamara) : Gens de la parole, p22.

ونشير إلى أن ملح أوليل كان يحمل إلى غلام أولاً، ومنها يحول إلى قلب مالي مرورا بمناطق كيتا ونياغاسولا، أما ملح إيجيل فيمر عبر ودانثم يحمل عبر طريق ( تيشيت . ولاته . تمبكتو) قبل أن يصل إلى منطقة الغابات، بينما ملح تاغزة فكان يمر عبر تمبكتو ومنها إلى جني ثم إلى مالي. (Sory (Kamara) : Op.Cit,p22)

(3) Igue(John): Op.Cit. p158.

(4) الشكري (أحمد):المرجع السابق، ص 193 .

(5) Igue(John): Op.Cit, p158.

كما لعبت بعض المدن التجارية دورا مهما في هذه السيطرة التجارية لمالي، فكانت مدينة ولاته أولى هذه المراكز التي أسسها السوننكي المسلمون المعروفون بالونغارا، والجداليون مع بداية القرن السابع للهجرة هروبا من بطش الصوصو عندما قاموا بغزو عاصمة غانة كومبي صالح.(1) فكانت تمثل أول عمالات السودان للتجار المغاربة القادمين من الشمال، فهي لا تبعد عن سجماسة إلا بمسيرة شهرين فقط.(2) ولعل وقوعها على الحدود بين منطقة السافانا والصحراء الكبرى، ووقوعها في مفترق الطرق الذي يعبره تجار السودان والذاهبون إلى الحج منهم، هو الذي مكّنها من استقطاب اهتمام التجار وجعل منها المحطة النهائية لعابري الصحراء باتجاه السودان الغربي، فعوضت بذلك الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة.(3) وعندما زارها ابن بطوطة خلال القرن الثامن للهجرة في عهد منسا سليمان كانت تابعة لإمبراطورية هذا الأخير، وكانت تتوفر على فنادق، ووجد بها مسؤول يتكفل بضيافة التجار والإشراف على شؤونهم يدعى منشاجو.(4) وبقيت تلعب هذا الدور كمحطة تجارية إلى غاية القضاء عليها من طرف الطوارق سنة 838هجرية /1433م، والذين أهملوها وفضلوا تطوير تمبكتو على حسابها.(5)

وتعد جني أكبر مدينة تجارية في مالي، فهي تعد مدينة وإمارة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا.(6) ولقد أصبحت منذ بداية عهد خلفاء سوندياتا الأوائل أي خلال القرن السابع للهجرة /13م مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقى الطرق التجارية، بالإضافة إلى إحاطة المياه بها مما جعلها في مأمن من الغارات الأجنبية.(7) فبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة

---

(1) (E.W.Bovil and Robin Hallet : Op.Cit, p89 . Cuoq(Joseph) : Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest, des origines à la fin du 16ème siècle. Librairie orientaliste Paul Gauthner, Paris, 1984, p91 .

(2) ابن بطوطة:المصدر السابق، ص676.

(3) شعباني (نور الدين): المرجع السابق، ص 116.

(4) المصدر السابق، ص676.

(5) Cuoq (Joseph) :Op.Cit. p91.

(6) حسن الوزان: المصدر السابق، ص162.

(7) الشيخ أمين عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى نهاية القرن السادس عشر. ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م، الصادر عن المعهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص 84.

القماش والنحاس والسلاح.(1) فكان يلتقي فيها أرباب الملح القادمون من تغازة ، وأرباب الذهب القادمون من أودغست، فاستقطبت إليها التجار مكان كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طوال أيام الأسبوع.(2) وكانت تستعمل فيها حتى القوارب لنقل الملح و سلع أخرى من تمبكتو إلى جني، فلقد كانت القوارب في جني كبيرة وقوية يقدر طول الواحد منها بعشرين مترا، وعرضها ثلاثة أمتار، بينما يقدر عمقها بـمتر ونصف، وكانت قادرة على حمل كميات كبيرة من السلع كالزبدة، الأرز، القماش، السمك، الدخن، وأكثر من خمسين عبدا. وكان طاقم القارب يتكون من 16 أو 18 بحارا معظمهم من قبيلة البوزو المشهورين بنشاطهم النهري.(3)

أما تمبكتو فلم تتحول إلى مركز تجاري مهم إلا بعدما بدأت ولاته تفقد مكانتها، فاستولت تمبكتو على تجارة ولاته وحتى ثقافتها.(4) ورغم الطبيعة الصحراوية والأرض القاحلة لتمبكتو، إلا أنها استفادت من التنوع الكبير للأجناس الذين سكنوها، وتنوع تركيبتها الديموغرافية من طوارق إلى بربر و سونكي و سنغاي وعرب و مالنكي و فلاته.(5) وتعد تمبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز التجارية الأخرى، إذ يعود بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/11م على يد قبائل بني مقشرن الطوارق.(6) إلا أنها تحولت إلى مدينة تجارية كبرى بفضل منسا موسى وأخوه سليمان اللذان عمراها ووفرا لها الحماية، وجعلا فيها الدكاكين والصناعات، وجلبا إليها البنائين، وازدهرت بها التجارة والعلم.(7) كما أن سمعتها كمخزن للتبر والذهب أصبحت تجلب التجار من كل نواحي دراع والسوس و سجلماسة و فاس، بالإضافة إلى تجار توات و غدامس و فزان وأجيلا في الصحراء.(8)

(1) حسن الوزان: المصدر السابق، ص163.

(2) السعدي: المصدر السابق، ص 12 .

(3) Niane temsir djibril :Le soudan occidental, p201, 202.

(4) E.W.Bovil and Robin Hallet : Op.Cit, p89.

(5) Elias(N)Saad :Social history of timbuktu :The role of muslims scholars and notables.1400-1900,Cambridge university press,2010,p38.

(6) السعدي: المصدر السابق، ص 20.

(7) حسن الوزان: المصدر السابق، ص165.

(8) E.W.Bovil and Robin Hallet : Op.Cit, p89,

وقد عرفت مدينة كوكيا نشاطا تجاريا كبيرا، وخاصة خلال فترة حكم منسا أولي، وإلى غاية فترة حكم منسا موسى، حيث استفادت من موقعها على ضفاف نهر النيجر، وازدهارها في مجال الزراعة والصيد البحري. ومع تطور إمبراطورية مالي غيرت كوكيا من نشاطها وتحولت إلى ميناء نهري هام عمل على ربط وتوجيه كل السلع التي تصل إلى تادمكة، وتحويلها إلى المدن الهامة للإمبراطورية والواقعة على ضفاف نهر النيجر، أي أنها تحولت إلى نقطة التقاء نهريّة للتجارة الكبرى في مالي.(1)

وبالإضافة إلى هذه المحطات التجارية الكبرى، عرفت إمبراطورية مالي أسواقا محلية عديدة اختصت كل واحدة منها في نقل سلع معينة، فمنطقة كورغو مثلا والواقعة على حدود غابة السافانا، فلقد كانت سوقا كبيرا للكولا والذهب، بينما نياني العاصمة فقد اشتهرت بأهميتها وموقعها الجغرافي الرابط بين بمنجم بوري للذهب، والغابة التي تأتي منها زيت النخيل والكولا اللذان يكثر عليهما الطلب، كما كانت سيلا في بلاد التكرور وكانو في بلاد الهوسا، عبارة عن أسواق محلية داخلية ذات نشاط موسمي.(2)

وكانت المعاملات التجارية تتم بطريقتين، فتلك التي تتم داخل الإمبراطورية تتم عن طريق المقايضة، حيث كانت تستعمل الملح كمادة للمقايضة، وهذا نظرا لندرة الملح في بلاد السودان لذا كان المليون يقاضونه بالذهب. فكانت حمولة الإبل من الملح(3) المجلوب من تغازة تباع في ولاته مقابل عشرة إلى ثمانية مثاقيل من الذهب، بينما تقايض نفس الحمولة من الملح في مدينة نياني العاصمة ما بين عشرون وثلاثون مثقالا، وقد يصل إلى أربعين مثقالا من الذهب.(4) علما بأن المثقال الواحد يعادل 4.5 غرام من الذهب.(5) كما استعمل معدن النحاس أيضا كسلعة للمقايضة، فقد كان النحاس الأحمر المجلوب إلى مدينة نياني يقاض كل مثقال منه بثلاثي وزنه ذهباً، ويباع كل مائة مثقال منه بستة وستين مثقال

1(Ogunsola (John igue) :Les villes précoloniales d’Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2006, p37.

2(Niane temsir djibril :Le soudan occidental, p201 ,202.

3) وكانت تقدر حمولة جمل من الملح بـ 150 كلغ. ( الشكري أحمد: المرجع السابق،ص193).

4) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص674.

5(Niane temsir djibril : Recherches sur l’empire du Mali, p68.

ذهب.(1) وفي تاكدة وهي مدينة النحاس كان تجارها يشترون بالقضبان القضبان النحاسية الرقيقة اللحم والحطب، ويبتاعون بالقضبان الغليظة العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح.(2)

ولقد انتشر استعمال النحاس الأحمر في المعاملات التجارية خلال فترة حكم الملك منسا موسى، إلى درجة أصبح فيه هذا المعدن هو الشيء الوحيد المعرض للمكوس حسبما أخبر به منسا موسى محدثه الفقيه أبا الروح عيسى الزواوي الذي التقى به بالقاهرة.(3) وفي بعض الأحيان كانت الأصداف التي تجلب من المحيط الهندي، والتي كان يجلبها التجار العرب، تعوض الملح والنحاس في المعاملات التجارية، وخاصة في الإمارات الشرقية للإمبراطورية مثل مملكتي غورما وجاو.(4) كما استعملت الودع في دولة مالي، فيذكر العمري بأن المعاملة في بلاد التكرور بالودع، وأن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع.(5) وكان المثقال الواحد من الذهب يقايز بثلاثة آلاف ودعة في تمبكتو.(6) ومع وجود بعض النقود المعدنية ذات الشكل الحلزوني، والتي كانت تستعمل في المعاملات العادية، فإن العملات الأكثر قيمة ورفعة تبقى تلك النقود الذهبية الملساء التي تعرف بالدينار الأصلع، والذي كان يضرب بمالي، ويتشكل هذه النقود من قطع صغيرة من الذهب الخالص الناعم، التي لم تكن تحمل أي ختم.(7)

ويبقى الذهب المعدن الأكثر أهمية في التعاملات التجارية وبسببه كانت القوافل التجارية القادمة من المغرب ومصر وأطراف الدنيا تقطع الصحراء الكبرى، وتكابد مشاقها ومخاطرها للوصول إلى هذا المعدن النفيس الذي أكسبته رحلة منسا موسى إلى الحج شهرة كبيرة وحيكت حوله الأساطير. وكان ذهب مالي يوجد بغالام التي تلقب ببلاد الذهب، وهي مدينة تقع عند المجرى الأعلى لنهر السنغال، وتعرف بلغة السوننكي باسم غاجاغا (Gajaaga)

(1) العمري: المصدر السابق، ص ص 126 و127.

(2) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 697.

(3) العمري: المصدر السابق، ص 126 .

(4) Niane temsir djibril : Recherches sur l'empire du Mali, p68.

(5) المصدر السابق، ص 122.

(6) طرخان (إبراهيم علي): المرجع السابق، ص 140.

(7) مارمول كرفجال: إفريقيا الجزء الثالث، ص 203

ويقصدون بها سكان الغرب لأنها تقع غرب الإمبراطورية.<sup>(1)</sup> كما يجلب من منطقة بامبوك وبوري في الجنوب التي كان يسيطر عليه شعب الجالونكي الكفار. وقد ارتبط استغلاله ببعض التقاليد الوثنية، فرغم انتشار الإسلام في ربوع الإمبراطورية إلا أنه كان يعتقد بأن هذا الذهب سيزول إذا ما أصبح تحت سيطرة المسلمين، لذلك حرص منسا موسى على عدم التدخل في أمور الجالونكي أسياد الذهب، ولا يأخذ منهم جزية، لكن في المقابل فهم يستخرجون له الذهب ويقدمونه له.<sup>(2)</sup>

أما المعاملات الخارجية فقد كان يتم بعضها بالعملة المختلفة، كالدرهم والدينار الموحيدين والدرهم الحفصي، لكنها كانت نادرة الاستعمال<sup>(3)</sup>. ومعظم التعاملات الخارجية كانت تتم مقايضة بالذهب أو العبيد أو العاج. وقد ربط أحفاد سوندياتا علاقات تجارية مع دول البحر المتوسط، وكانت هذه التجارة تغطي عليها تجارة الذهب حيث كان العرب يمثلون حلقة وصل بين مملكة مالي ودول البحر المتوسط، وكان الذهب هو العملة الرائجة بينهم.

وبفضل رحلة الحج التي قام بها منسا موسى والشهرة التي اكتسبها في القاهرة والحجاز، فإن التجارة العابرة للصحراء قد ازدهرت وازدادت حجما وتدققا، خاصة بعدما أصبحت مالي معروفة أكثر في المغرب والمشرق الإسلاميين وأوروبا، فأصبحت المراكز التجارية المالية كولاته تعج بالملابس المستوردة من مصر والشام، كما أن إبرام منسا موسى لعلاقات دبلوماسية مع كل من المرينيين بفاس والمماليك بمصر وأشرف مكة، أضاف مجالات واسعة لتجارة مالي، وجعل منها قطبا تجاريا لا يمكن تجاوزه.

### 3. التنظيم الاجتماعي:

إن هذه القوانين كانت عبارة عن مدونة سلوك اجتماعي، وذلك من خلال تنظيمها للحياة الاجتماعية داخل المجتمع المندي الكبير، وكل العشائر المنضوية تحت إمبراطوريته، فلقد

---

(1) (Abdoulaye(Bathily): Les portes de l'or, Le royaume de Galam. Editions l'Harmattan, paris, 1989, p35.

(2) العمري: المصدر السابق، ص 127.

(3) أحمد موسى عز الدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجرة.. دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، ص 299 .

قسم المجتمع إلى طبقات على أساس حرفي ومهني، وكل طبقة لها دور خاص ومكانة خاصة في المجتمع<sup>(1)</sup>. وبذلك فقد تم تقسيم المجتمع إلى الطبقات التالية:

. الرجال الأحرار :وهم المكونين من 16 عائلة أو عشيرة، والمعروفين بحاملي الجعاب<sup>(2)</sup>، والتي تعرف عند المندي بمصطلح " ملندينج - جون - تان - ني - وورو (Manding (djon-tan-ni-woro)، والتي تعني مجموعة العشائر الحرة للماندينغ و الإمبراطورية<sup>(3)</sup>.

. المرابطون (أو رجال الدين): وتضم خمس عشائر، التي يطلق عليها اسم ماندينغ - موري - كاندا - لولو، وتعني (العشائر حامية الإيمان والدين)، وهي عائلات كل من سيسي، بيريتي، توري، ديابي، بالإضافة إلى سيلا أو (كوما)، حيث نصت المادة الثانية من الميثاق على احترامهم وتقديرهم<sup>(4)</sup>.

. طبقة الرواة الشفويين (غريوت Griots): وينقسمون إلى أربع قبائل كبيرة، وكل منها تتألف من عشيرة أو عدة عشائر تعرف بـ " غنارة - ناني"<sup>(5)</sup>.

. الطبقة النبيلة: وتتكون فقط من العائلات المتحالفة مع سوندياتا منذ البداية، وهي عائلات آل كوندي في منطقة دو، آل كوروما، آل تراوري وآل كامارا في مندينغ القديم<sup>(6)</sup>.

. طبقة نياكامالا: وهي طبقة الحرفيين وأصحاب المهن، ويمكن تسميتهم بـ"تيريرا" أو دانيوكو"، وهم أقلية في المجتمع. و تنص المادة الثانية من ميثاق كوروكان فوكا على إلزام

---

(1) Centre for linguistic and historical studies by oral tradition (CELHTO), La charte de kurukan fuga ,Aux sources d'une pensée politique en Afrique. Editions l'harmattan, Paris, 2008, p11.

(2) حاملو الجعاب هم حاملي القوس والرمح ، أي المحاربين الذين يدافعون عن حدود إمبراطورية مالي، وهي عائلات تراوري، كوندي، كامازا، كوروما، كاميسوكو، ديالو، دياكيتي، سيدبي، سنغاري، دانسوبا، ماكاسوبا، دياوارا، ساكو، فوفانا، كواتا و ديابي.

(3)Niane Tamsir Djibril , Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p36.

(4)CELHTO , La charte de Kurukan fuga, p42.

(5)Niane Tamsir Djibril ,Op.Cit, p36.

(1)Christophe(Daum) ,Les associations de Maliens en France, Édition Karthala, Paris,1998,p69.

طبقة نياكامالا بقول الحقيقة لرؤسائهم، وأن يكونوا مستشارين لهم<sup>(1)</sup>، وأن يدافعوا بالقول والفعل عن القوانين والنظام المقام في الإمبراطورية. وبالإضافة إلى هذه الطبقات، فقد وجدت طبقة العبيد التي تضم عددا من العشائر. كما تم تقسيم المجتمع أيضا إلى فئات عمرية، حيث ينتمي كل الذين وُلدوا في فترة ثلاث سنوات متتالية إلى نفس الفئة العمرية، وأعطى للفئة العمرية الوسطى (التي تتحصر بين فئة الشباب وفئة الشيوخ) حق المشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية الكبرى التي تخص المجتمع.

### 3. الحقوق والواجبات:

وقد تضمنت قرارات المؤتمر حقوقا وواجبات كل فئات المجتمع المندي. فبالنسبة للحقوق فقد تضمن هذا الدستور حق كل إنسان في الحياة وفي الحفاظ على سلامته الجسدية، بل أنه اعتبر بأن كل مساس بحياة الآخرين فإن عقوبتها الإعدام. كما تضمن هذا الدستور إقرارا بحقوق المرأة، فقد نصت المادة 14 منه على عدم إهانة النساء لأنهم أمهاتنا، حيث استلهم الدستور هذه المبادئ من الأعراف والأفكار الإفريقية والتي تعطي مكانة مهمة للأم والزوجة والأخت والخالة والعممة، فهي على ما يبدو لم تستورد هذه المبادئ ولم تكن نتيجة تأثر بثقافة أخرى. فبهذا الخصوص تنص المادة 11 من الدستور على أنه لا يجب تتبع الزوجة إلى بيت الجيران أو مطاردتها في حالة ما إذا هربت من بيت زوجها. ولم يكتف ميثاق كوروكان فوكا بحماية المرأة فقط، وإنما فتح لها مجالات البروز والمشاركة في الحياة السياسية، حيث تنص المادة 16 من بيان الميثاق على ما يلي: «إن النساء، بالإضافة إلى انشغالاتهم اليومية، يجب أن يشاركوا في كل شؤون حكمتنا»<sup>(5)</sup>.

---

(1) Kuyaté siriman , La charte de Kurukan fuga. Radio Rurale de Guinée, Atelier régionale de concertation entre traditionalistes Mandingues et communicateurs des Radios rurales. (Kankan du 02 au 12 Mars 1998), p6

(2) وتعرف هذه الفئة بـ " كانكي Kangbé "

(3) CELHTO , La charte de Kurukan fuga, p45

(4) Kouyaté Siriman , Op.Cit, p7

(5) CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p19

(6) Ibid, p19



وهكذا نجد بأن سوندياتا قد أشرك المرأة في النقاش السياسي وفي قضايا الأمة. فلقد كان للنساء في المجتمع المندي جمعيات قوية تعرف بـ"نياغاموسو" (Niagamoussou)، حيث تستشار النسوة في تقديم رأيهن بخصوص المشاكل التي تواجه القرية ليساهمن في إيجاد الحلول لها<sup>(1)</sup>. كما حافظ الميثاق على حقوق المسنين، وأوجب احترام كبار السن وتقديرهم<sup>(2)</sup>. أما فيما يخص الواجبات، فقد اقتصر على العلاقات الاجتماعية بين الفئات، وحددت واجبات كل فئة مع الآخرين. ذلك أن المادة الثانية من قانون كوروركان فوكا نصت على واجبات طبقة الحرفيين (نياكامالا) والتي تضم الحدادين والنساجين وغيرهم، وهي ضرورة قول الحقيقة لرؤسائهم، وأن يقدموا لهم المشورة للأمة<sup>(3)</sup>. كما فرض على المجتمع المندي طاعة وتقدير واحترام رجال الدين المعروفين بموريكاندا (Morikanda)، بالإضافة إلى وجوب احترام الرواة الشفويين المعروفين بالجيلي باعتبارهم يشكلون ذاكرة الأمة وتاريخها<sup>(4)</sup>.

#### 4.تنظيم الأسرة والعلاقات الاجتماعية:

لقد اهتم المجتمعون في كوروركان فوكا بالخلية الأساسية للمجتمع وتنظيمها ألا وهي الأسرة، حيث تضمنت قوانين ميثاق مندي نصوصا تخص الأسرة والطفل والعلاقات الاجتماعية. ففيما يخص الأسرة فقد بدأها بتعزيز مكانة المرأة التي تعد عنصر أساسي في المجتمع، فهي الأم والزوجة والأخت والخالة والعمة والجدة، وبذلك فقد حافظ على حقوقها وأجبر الجميع على احترامها كما رأينا. و بما أن الزواج هو أساس تكوين هذه الأسرة فقد حدد ميثاق كوروركان فوكا سن الزواج لكلا الجنسين، فبينما جعل سن زواج الفتاة هو بلوغها فإن الشباب يمكنهم الزواج ابتداء من سن العشرين. وهو السن الذي تكتمل فيه القوة الجسدية للرجل، كما حدد مهر العروس بثلاثة ثيران يقدم اثنان منها لأبويها وتأخذ العروس ثورا واحدا<sup>(5)</sup>.

(2) Kouyaté Siriman ,Op.Cit, p7

(3)Ibid,p7

(4)CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p19- Kouyaté Siriman : Op.Cit, p7

(4)Kouyaté Siriman , Op.Cit, p7

وفيما يخص الطلاق، فقد سمح به لكن في حالات محدودة جدًا وهي: العجز الجنسي عند الرجل أو إصابة احد الزوجين بالجنون، بالإضافة إلى الحالات التي يكون فيها الزوج غير قادر على تحمل متطلبات الأسرة. كما حدد ميثاق مالي العلاقات الأسرية بين الزوج و زوجته وبين الأصهار، حيث أوصى بالتسامح كمبدأ للمعاملة بين الأصهار وكذا بين الأجداد وأحفادهم<sup>(1)</sup>. كما جعل مكانة الصهر (والد العروسة) مقدسة وصنفها في مرتبة كلمة الشرف التي يقدسها المنديون. فقد جاء في المادة 19 من الميثاق بأن كل رجل لديه نوعين من الأصهار هما، والد الفتاة التي لم يحصل عليها بعد، والكلمة التي تلفظ بها ولن أن يتراجع عنها<sup>(2)</sup>. أي انه على كل رجل أن يحترم كلمته مع والد الفتاة التي تقدم لخطبتها، و أن كلامه معه هو بمثابة كلمة الشرف التي تعد مقدسة عند المنديين. ولمعالجة المشاكل الزوجية اليومية، فإن الميثاق وضع نقاطا فيما يخص تعامل الرجل من تتبع زوجته الهاربة إلى بيت جاره، أو إلى بيت زعيم القرية أو رجل الدين أو بيت الصديق أو بيت الشريك في العمل، وهو نفس الأمر الذي ينطبق علنا لأبناء إذا ما ارتكبوا مخالفة وهربوا من البيت<sup>(3)</sup>. والمغزى من ذلك هو عدم استعمال القوة لإعادة أحد أفراد العائلة إلى البيت، وكذا إبراز مكانة هؤلاء الناس الذين استجار بهم أحد أفراد العائلة عند المندي، حيث أن شفاعة هؤلاء لا ترد عادة. كما نستخلص من هذه المادة أيضا هو الدعوة إلى التعقل وضبط النفس في أوقات الغضب، وعدم التسرع في رد الفعل وإعطائها فرصة للهدوء ومراجعة الموقف لتفادي التداعيات الوخيمة. وقد خصصت بعض بنود الميثاق للتربية وأولتها أهمية كبرى، فقد جاء في المادة التاسعة منها بأن تربية الأطفال هي مسؤولية كل المجتمع، وأن الأبوة يشترك فيها الجميع أيضا<sup>(4)</sup>. وبذلك أشرك جميع أفراد المجتمع في العملية التربوية من خلال إلزام كل واحد بإرشاد الطفل إذا أخطأ، وتأنيبه إذا ما تمادى في خطئه. وفي مجال العلاقات الاجتماعية

(1) المادة 30 .

(2) CEHLTO , Op.Cit,p49.

(3) CEHLTO , Op.Cit,p18

(4) Kouyaté Siriman , Op.cit., p7.

(5) CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p49

والآداب العامة، فقد وضع ميثاق مندي نصوصا حدد بها المعاملات والسلوكيات التي يجب إتباعها بين الناس، ودعا إلى احترام العلاقات الاجتماعية. فلقد ركز سوندياتا على علاقات القرابة والجيرة كأساس للتوافق و الوئام بين أفراد المجتمع والشعب المندمين خلال ما نصت عليه المادة 40 من القانون من ضرورة احترام القرابة والزواج والجيرة<sup>(1)</sup>. وبذلك اعتبر الجار من أقرب المقربين وفي منزلة القريب من حيث الدم أو القريب من حيث المصاهرة، وهو بذلك يجسد العادات المالنكية المبنية على صلة الرحم وتقديس الجار. فهناك مثل مالنكي يقول: (( إن جارك هو أقرب أقربائك، فعندما يصيبك سوء فهو أول من يجب أنيعلم، وأول من يستطيع مساعدتك))<sup>(2)</sup>. هذا وقد دعا الميثاق إلى وجوب مساعدة من طلب مساعدتنا<sup>(3)</sup>، والضرورة تقدم التعازي إلى بعضنا البعض<sup>(4)</sup>. وأوصى بعدم الإساءة للعبيد، وضرورة إعطائهم يوما للراحة في الأسبوع، والحرص على أن يعملوا في أوقات معقولة، حيث جاء في المادة 20 من الميثاق: (( نحن أسياذ على العبيد ولكننا لسنا أسياذا على الكيس الذي يحملونه ))<sup>(5)</sup>. أما فيما يخص معاملة المرأة المتزوجة التي تخطئ، فقد نص على عدم وضع أيدينا عليها إلا عندما تفشل كل محاولاتنا في جعل زوجها يتدخل في ذلك<sup>(6)</sup>.

أما في مجال الآداب العامة والسلوك الواجب انتهاجه بين الناس، فقد أوصى سوندياتا بجملة من المبادئ والمعاملات الإنسانية، فنجد في المادة 23 من ميثاق مندن نصا يفيد بما يلي: (( لا تخذعو بعضكم بعضا، واحترموا كلمة الشرف بينكم))<sup>(7)</sup>. ودعا إلى عدم الاعتداء على الأجانب<sup>(8)</sup>. وبخصوص هذا البند نذكر الشهادة التي قدمها لنا الرحالة ابن بطوطة فيما يخص احترام الأجانب وحسن معاملتهم ، حيث يذكر بأنه من الأعمال التي استحسناها من أهل مالي قلة الظلم عندهم، وأن سلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، وهذا ما أدى إلى

---

(1) Niane temsir djibril , Introduction du livre (la charte de kurukan fuga),p18

(2)المادة 30.

(3)مادة 10

(4)Kouyaté Siriman , Op.cit p8

(5)Ibid,p7

(1) Kouyaté Siriman : Op.cit,p8.

(8)المادة 24

استتباب الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر إليها ولا المقيم فيها من سارق ولا غاصب، وأنه حتى وإن مات ببلادهم أحد من البيضان فلا يتعرضون لأمواله ولو كانت القناطير المقنطرة<sup>(1)</sup>. ودعت قرارات اجتماع كوروكا فوكا الشعب المالي إلى التواضع وعدم الغرور ، لأن الغرور هو رمز الضعف بينما التواضع والإنسانية هي رمز القوة<sup>(2)</sup>. كما أوصى الميثاق بحسن معاملة الرسل والمبعوثين والمكلفين بمهمات، وأعطى لهم الآمان، حيث نصت المادة 25 منه: (( إن المكلفين بالمهمة لا يخشون شيئاً في مدن)).

هذا وقد أعطى دستور مالي للمنديين طريقة التعامل مع العدو وأوصى المحاربين بالنبل والشرف حتى مع أعدائهم، إذ نجد في المادة 32 من القانون: (( أقتلوا عدوكم لكن تتكلموا به)). كما شجع على العمل وحدث عليه واعتبره الوسيلة الأساسية للرقى والازدهار. فسوندياتا حسب عدة رواة كان يشيد ويمجد أصحاب المهن، وهي المهن التي بدونها لا يستطيع المجتمع أن يوجد، كما كان يشجب الكسل. لهذا تذهب المادة السادسة من الميثاق إلى أنه لربح معركة الرخاء فإنه تم إنشاء نظام عام للمراقبة من أجل الكفاح ضد الكسل والخمول تعرف بكونوغبان ولو (Konogbène wolo) والتي تعني (عالم المراقبة من أجل النضال ضد الكسل والخمول). ويقوم هذا النظام الخاص على المراقبة العامة من أجل محاربة الكسل من فئة معينة من السن التي توكل إليها مهمة مراقبة العمل داخل الحقول، وتعرف بباراتيكي (Baratigui)، والتي تبحث عن أولئك الناس الذين يأكلون على حساب الآخرين (أي الذين يتقاعسون عن العمل) ومن ثم إعادتهم إلى العمل في الحقول<sup>(3)</sup>.

**5. تنظيم الملكيات:** لقد خصصت المواد من 34 إلى 39 من الميثاق الذي ظهر في كوروكان فوكا للتشريعات الخاصة بتنظيم الملكيات المنقولة والعقارات، وقد حددت المادة 34 منه الطرق الخمس للحصول على ملكية ما، وهي: الشراء، العطاء (الهبة)، التبادل والوراثة. وأي صيغة أخرى للملكية غيرها تعد غير شرعية وباطلة<sup>(4)</sup>. أما إذا وجد أحدهم شيئاً بدون

(رحلة ابن بطوطة، ص 6901)

(2) المادة 22

(4) Niane temsir djibri , Op , Cit, p20 .

(5) CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p49- Kouyaté Siriman , Op.cit., p9.

(4) CEHLTO : La charte de kurukan fuga, p49

مالك معروف فإنه لا يصبح ملكا له إلا بعد أربعة أعوام<sup>(1)</sup>. وبخصوص السرقة من أجل سد رمق الجوع فقد أجازها الميثاق بشرط أن لا يملك السارق حين يسرق شيئا في كيسه أو جيبه، أي لا يجب أن يأخذ معه شيئا من الحقل<sup>(2)</sup>. أما بالنسبة لملكية الحيوانات، فإنه أقرّ بأنه عندما تلد العجلة فإن مولودها سيكون ملكا للحارس، بينما عندما تبيض الدجاجة فإن الحارس لا يأخذ سوى بيضة واحدة من كل أربع بيضات حسب ما تنص عليه المادة 34. وإذا أراد أحدهم أن يبدل ثورا فإن كل ثور يبدل بأربعة كباش أو أربع عنزات<sup>(3)</sup>. كما حدد هذا الفصل واجبات الملاك بالنسبة لحيواناتهم، بحيث تنص المادة 39 من الميثاق على أن الحيوانات الأليفة يجب أن تربط وقت الزرع وتطلق بعد جني الثمار، وقد استثنى من ذلك القطط والكلاب والبط والأبقار<sup>(4)</sup>.

---

(5) المادة 35.

(6) المادة 36.

(1) المادة 95.

(2) CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p49.

## المحور الرابع

### إسهامات مملكة مالي في بناء الصرح الحضاري العالمي .

#### 1. في ميدان التشريعات (-كوروكان فوكا)

تنسب الروايات الشفوية لسوندياتا كيتا إنشاء أول دستور عرفه السودان الغربي في تاريخه، ويعد هذا الدستور الذي أنشئ في قرية " كوروكان فوكا " عام 633هـ / 1236م حسب هذه الروايات، بمثابة الميلاد الحقيقي للأمة المالية بأكملها<sup>(1)</sup>. وتقع قرية كوروكان فوكا قرب مدينة كنگابا، على بعد 200 كيلومتر جنوب مدينة بماكو الحالية<sup>(2)</sup>. اختارها المليون لتكون مقرا لميلاد دستورهم<sup>(3)</sup> الذي سوف يقنن قواعد عرفهم ومحرماتهم التي كانت تنظم العلاقات فيما بين عشائرتهم، وبين عشائر الغرب الإفريقي الأخرى<sup>(4)</sup>. فكان ذلك الاجتماع إذن بمثابة جمعية تأسيسية حقيقية للإمبراطورية المالية الناشئة. ولقد كانت فكرة تنظيم ذلك الاجتماع من اقتراح كبيرى الرواة الشفويين الخاصين بسوندياتا كيتا وهما: بالافاسيكي كوياتي (*Bala fasséké Kouyaté*)، وكالاجي سونغوي دياباتي (*Kaladjé Songhoï Diabaté*) بالإضافة حكام الإمارات المندية<sup>(5)</sup>. لكننا نضن بأن سوندياتا كانت له النية أيضا بعقد هذا المؤتمر، وتزويد إمبراطوريته بميثاق حتى قبل أن يقترح عليه الأمر من طرف هؤلاء الرواة والأمراء، ذلك أن رواة كيرينا يذكرون بأن سوندياتا كان قد أطلع نبلاء مدينة كيتا عندما زارهم

(1)Diawara (Gaoussou) , Aboubakari2, exploreur manding. ,p51

(2)Sissoko(Birama) ,La charte de l'ancien empire du Mali pourrait inspirer les Maliens d'aujourd'hui. In site : <http://base.d-p-h.info/fr/fiches/organisme - 158.html>.consulté le 04-12-2010

(3)تم اكتشاف هذه النصوص القانونية عام 1998م خلال عقد ملتقى نظم في منطقة "كاكان" بغينيا، بمبادرة من الوكالة، الفرنكوفونية عن طريق مركز ا C. (consultant international) ومركز الدراسات اللسانية والتاريخية عن طريق الروايات الشفوية.

(Centre d'études linguistiques et historiques par lestraditions orales. CELHTO))، وجمعت الباحثين والرواة الشفويين القادمين من السنغال وبوركينا فاسو ومالي، ومن مختلف المقاطعات لجمهورية غينيا. وكان الهدف من هذا الملتقى هو تشجيع التعاون بين الرواة الشفويين التقليديين، والباحثين المعاصرين من أجل الحفاظ على التراث الشفوي الإفريقي. فأخذ الرواة يسردون رواياتهم التي يعرفونها حول القوانين التي سنها سوندياتا. وبذلك تمكن المؤتمر من جمع كل مواد القوانين وعددها 44 مادة.

(4)نيان تمسبر جبريل، ماليو التوسع الثاني للماندينغ، ص 135 .

(5)Diawara (Gaoussou) ,Op.Cit, p51

من أجل الاستحمام في بحيرة "موكويا - جي" بأنه سيعلم قريبا عن ميثاق أساسي لكل بلاد مندن، وقد ذكر ذلك باللغة المالنكية حيث سماه مندن باسيكي كان ( *Manden bassigui* ) (1). وانعقد اجتماع كوروكان فوكا سنة 633هـ / 1236م، أي بعد سنة واحدة من انتصار كيرينا الشهير، لكننا لم نجد في المصادر الشفوية اليوم والشهر الذي انعقدت فيه. وتشير هذه المصادر إلى أن قرية "كوروكان فوكا" أخذت اسمها من هذا الحدث السياسي والتاريخي الهام، فهي تتشكل من ثلاث كلمات مالنكية هي: كورو وتعني جمعية، كان وتعني اليمين وفوكا التي تعني الفرجة في الغابة(2). وبهذا تكون هذه الكلمة المركبة تعني (الجمعية التي أدي فيها اليمين). وقد انعقد هذا المؤتمر تحت القيادة السامية لسوندياتا، وكان نائبه هو أخوه غير الشقيق مندي بوري، ومحاط بأربعة من رؤساء قبائل هم : سيببي كاماجان كامارا، تابون نغابا فران كامارا، فاكولي كوروما أو (دومبيا) وتاولي تونكارا (وهو الأخ الأصغر لملك نيما وهو نيما موسى تونكارا). حيث يعتبر هؤلاء الرجال من اقرب الناس إلى سوندياتا، باعتبارهم كانوا هم من رافق سوندياتا إلى منفاه بميما، ودعموه في كل قراراته(3). ولقد تمخض عن اجتماع كوروكان فوكا أربعة وأربعين قانون أو قرار(4). شملت تنظيم السلطة السياسية، وحددت العلاقات الاجتماعية، ونصت على المبادئ الأساسية الموجهة والمنظمة للحياة اليومية في مندن. كما قررت هذه الجمعية اختيار إمبراطور مالي، حيث نودي بسوندياتا رسميا منسا (وتعني ملك باللغة المالنكية)، أو ماغان (أي إمبراطور بلغة السوننكي)، وكان ذلك أول قرار يتخذ في هذا الاجتماع. وإذا أردنا تصنيف قوانين دستور كوروكان فوكا إلى ميادين مختلفة، فإننا نجدها تشمل الميادين التالية.

### أ. حماية البيئة:

(1) Youssof tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste,t2 p 38.

(2) Diawara (Gaoussou) ,Op.Cit, p51

(3) Ibid, p52

(4) تقول بعض الروايات المنقولة بأن هذا الدستور يتضمن 130 مادة، لكنها لم تحتفظ إلا بـ 44 مادة فقط. أنظر: سولومانا كونتي: مذكرة تاريخ مندن القديم و الحديث. . In revue électronique : Copyright :N°C, année 1999-2000 .

كان للبيئة نصيب وافر من اهتمامات سوندياتا، وخصص لها ميثاقه عدة مواد للحفاظ عليها، وخاصة الغابات التي تنتشر بكثرة في مرتفعات ماندينغ، وتشكل البيئة الأساسية للمالانكي، حيث تنص المادتين 40 و41 من القانون المنبثق عن اجتماع كوروكان فوكا على أن الغابة هي أعلى ما يملكه المندن، وبالتالي أوصى بوجوب حمايتها والمحافظة عليها من طرف جميع السكان من أجل سعادتهم. كما شدد كثيرا على الاحتياطات الواجب مراعاتها في حالة إشعال النار في الغابة لسبب من الأسباب، حيث جاء في المادة 41 بأنه قبل إشعال النار في الغابة لا يجب أن ننظر إلى الأرض، وإنما يجب رفع رؤوسنا إلى قمة الشجرة<sup>(1)</sup>. وهذا من أجل إدراك قيمة الشجرة وجمالها، وبالتالي يحث هذا الدستور على ضرورة منح الإنسان الذي يريد إشعال النار في الغابة الوقت لمراجعة قراره، ومعرفة خطورة الأمر الذي يقدم عليه. أما فيما يخص الحيوانات فقد دعا الميثاق إلى ضرورة ربط الأليفة منها في أوقات الزرع ولا يطلقونها إلا بعد انتهاء موسم الجني<sup>(2)</sup>. وهذا حتى لا يتسببون في إفساد الزرع والمحاصيل الزراعية، ويستثنى من هذه التعليلة كل من الكلاب والقطط والبط والدواجن<sup>(3)</sup>، حيث لا يخضعون لهذه التدابير وذلك ربما لكونها حيوانات تعيش على النقاط غذائها بنفسها، ولا تتسبب في إفساد الزرع. أما بالنسبة للكلاب فغنهم يحتاجون إليها طليقة حتى تقوم بمهمة الحراسة.

#### ب. النظام السياسي:

لقد سطر اجتماع كوروكان فوكا باعتباره جمعية تأسيسية أو جبارا (*Djbara*) بالمالانكي، مبادئ الحكم والإدارة لإمبراطورية مالي، والذي جعل منه نظاما ملكيا وراثيا يكون الملك فيه لسوندياتا. الذي لقب بمنسا (أي الإمبراطور). ولأبنائه وأحفاده من آل كيتا من بعده. كما نصت بنوده على وجوب اتخاذ أمراء المندي من آل كيتا زوجاتهم الأولى دائما من بين نساء عشيرة كوندية، وهذا تخليدا لذلك الزواج التاريخي الذي بين والد سوندياتا ناري فاماغان

(3) Kouyaté Siriman, Op.cit., p9.

(4) Ibid, p9

(1) Kouyaté Siriman, Op.cit., p9.



بسوغولون بيريتي والدة سوندياتا والتي تنتسب لآل كوندية<sup>(1)</sup>. ولقد حافظ دستور مالي الجديد على التقاليد الإفريقية القديمة التي تجعل الشقيق يخلف شقيقه في الحكم، بالإضافة إلى احتفاظ المنسا بمنصب القاضي الأول في البلاد، على اعتبار أنه رب العائلة والرعية. لهذا نجد أن ملوك مالي من آل كيتا كانوا يخاطبون من طرف شعوبهم بكلمة "مغا منسا" والتي تعني أبي الملك<sup>(2)</sup>. وتحدد المادة 12 من قانون كوروكان فوكا شروط انتقال الحكم من ملك ميت إلى ملك آخر، فرغم أن وراثة الحكم عند آل كيتا تتم بطريقة أبوية<sup>(3)</sup>، إلا أنه لا يجب أن يعطى الحكم إلى الإبن في حالة وجود أحد أبائه حيا. أي أنه لا يمكن توريث ابن الأخ طالما أن أباه مازال حيا، ولا يمكن توريث الإبن طالما أن عمه على قيد الحياة، كما يمنع إعطاء الحكم للطفل القاصر الذي لم يبلغ سن الرشد<sup>(4)</sup>. ونشير هنا إلى أن سوندياتا كرس التقاليد المتبعة في إفريقيا الغربية فيما يخص نظام الحكم والتداول على السلطة وكذا صلاحيات الملك، حيث كانت عملية اختيار الملك الذي يرث العرش تتم من طرف العائلة الملكية، والملك الجديد لا يتولى مهامه رسميا إلا بعد إجراء جملة من الطقوس الضرورية لذلك. كما أن سلطة الملك كانت تخضع لشيء من الرقابة البرلمانية، من خلال تواجد مجلس يشبه البرلمان مكون من الوزراء والنبلاء معينين بطريقة وراثية، بالإضافة إلى رجال الدين ورؤساء بعض العائلات<sup>(5)</sup>. وبذلك يكون سوندياتا قد أسس للنظام البرلماني في إفريقيا، وابتعد بذلك عن النظم المطلقة المتبعة في ممالك السودان الغربي آنذاك. حيث نجد في المادة 42 من ميثاق مندن ما يشير إلى وجود مجلس أو برلمان يمثل صوت الشعب، والذي

---

(1) نيان تمسير جبريل، مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص 145.

( ) نفسه، ص 2.145

(1) و هذا خلاف ملوك غانة الذين كانوا يورثون ابن الاخت في الحكم، حيث يقول عنهم البكري،(المصدر السابق،ص175):« و تلك سيرتهم و مذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته ويشك في ابنه».

(2) Kouyaté Siriman , Op.cit., p7- CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p48

(4) Kouyaté Siriman : Op.cit., p7

(4) Delafosse(Maurice) , Les civilisations Nègro-africaine. Librairie Stock, Paris, 1925, p92

ذكر بالتجمع الكبير، وتنص المادة المذكورة على أن الشعب يكتفي بممثليه الشرعيين في هذا التجمع<sup>(1)</sup>.

وفي الأخير اختتمت مواد الميثاق بأحكام نهائية تُدَكَّر بضرورة تطبيق ما جاء في نصوصه، وتحذّر من العقاب كل من يخالفها عبر كامل التراب المالي<sup>(2)</sup>. وبذلك أعطت مواده صفة الإلزامية، وجعلت منه الدستور الوحيد في أرجاء الإمبراطورية. وبهذا يكون سوندياتا أول ملك سوداني استطاع أن يوحد إمبراطورية كلها، بجميع إماراتها، ومختلف شعوبها وعشائرها، حول دستور واحد تدوب فيه كل الاختلافات التشريعية، وتتسجم فيه جميع تقاليد ومبادئ الإمبراطورية، وتخضع له جميع الطوائف والعشائر والطبقات. كما يكون سوندياتا قد اقترب بذلك كثيرا إلى مفهوم الدولة الوطنية، وهو في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد/السابع للهجرة. حيث ينسب الرواة الشفويون لسوندياتا تصريحاً يكون قد أدلى به أمام الجمعية التأسيسية التي دعاها إلى كوروكان فوكا من أجل المصادقة على الميثاق بعد تعديلها جاء فيه: « الآن، وبعد أن أصبحنا أسيادا لِقَدَرنا، سوف نؤسس وطننا على أسس متينة وعادلة، ومن أجل هذا علينا أن نسن القوانين التي لا بد على الشعب احترامها وتطبيقها»<sup>(3)</sup>.

## ب. التنظيم الإداري للدولة:

قسم سوندياتا الإمبراطورية إلى نوعين من المقاطعات، وهي:

1. تلك التي انضمت إلى سوندياتا منذ البداية وبمحض إرادتها، وهي المقاطعات التي

احتفظ ملوكها بألقابهم كملوك<sup>(4)</sup> مثل ميما وكومبي صالح، حيث يذكر العمري بأنه ليس في مملكة مالي من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة، وهو كالنائب له وإن كان ملكا<sup>(5)</sup>.

(1) Op.Cit ; p9 CEHLTO :

(1) Kouyaté Siriman ,Op.cit., p10.

(2) Youssouf tata cissé et Wà kamissoko, La grande geste du Mali, tome2, p39.

(3) نيان تمسير جبريل:المرجع السابق، ص 145.

(4)مسالك الأبصار، الجزء الرابع، ص 110.

بينما كانت إمارة ميمبا هي من احتضنته في صباحه، واتخذ منها منفى له، وجّهز جيشه لمحاربة الصوصو حسب الروايات الشفوية<sup>(1)</sup>.

## 2. أما النوع الثاني من المقاطعات، فهي تلك التي انضمت عن طريق الفتوحات

العسكرية، والتي كان يعين فيها حاكما أو فران (Faran) إلى جانب الرئيس التقليدي<sup>(2)</sup>، لكنها حافظت على استقلال داخلي ملحوظ<sup>(3)</sup>. وبذلك يكون سوندياتا قد شكل نظاما إداريا فيدراليا مكونا من عدد كبير من الإمارات<sup>(4)</sup> والحاميات العسكرية المكونة من الجنود المندينكا لضمان الأمن، ولقمع أي ثورة أو انتفاضة محتملة<sup>(5)</sup>. وفي نفس الوقت نجد أن سوندياتا قد حافظت على الطابع المركزي للدولة من خلال تعيين أفرادا من عائلة كيتا على هذه الإمارات والممالك برتبة "قاربا" أو "فاران"<sup>(6)</sup>. وتتخلص مهمة القاربا في السهر على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية، ويساعده في عمله كاتب ينفذ أوامره<sup>(7)</sup>. ولقد حاول سوندياتا أن يقيم صلات وثيقة بين مختلف العشائر المندية والعشائر المنتمية لأعراق سودانية أخرى، ويحدث انسجاما بينهما. كما أدمج تلك العشائر في الدولة المالية الكبرى، فنجده يمنح قبائل السومونو والبوزو (وهي من العشائر المندية) لقب سادة المياه، من خلال إشرافهم على الملاحة في النيجر. كما قام بتوزيع قبائل الصوصو على الطوائف الحرفية، واعتبر أقاليمها من أملاك الإمبراطورية<sup>(8)</sup>. كما قسم سوندياتا الإمبراطورية إلى منطقتين عسكريتين كبيرتين،

(1) Youssouf tata cissé, Op Cit, p39.

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص، 146.

(3) Janson (Jan), Epopée, histoire, société, Le cas de Soundjata, Mali et Guinée, p85,

(4) نظم سوندياتا إمبراطورية مالي لا مركزيا بحيث قسمها إلى 400 مدينة، و إلى 20 إمارة، وكل إمارة مقسمة إلى مقاطعات، وكل هذه الكيانات الإدارية كانت مسيرة من طرف سلطات دينية وسياسية مسؤولة أمام الملك وتعرف بالفاربا. (Tidiane N'diaye :La grande marche des peuples noirs.)

(5) Panhuys (Henri) , La fin de l'occidentalisation du monde. Editions l'harmattan, Paris 2004, p319.

(6) Trimingham (Spencer) , The history of islam in West Africa.p76.

(7) الشكري أحمد: المرجع السابق، ص 190 . السعدي (عبد الرحمن): تاريخ السودان، ص 10 . Delafosse (Maurice) ,

H S-N,t1,p160

(1) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 145.

شمالية وجنوبية يشرف عليهما قائدان يخضعان لأوامر سوندياتا شخصيا، فكان قائد الناحية الشمالية يسمى "سنكار - زوما"، أما قائد الناحية العسكرية الجنوبية فيسمى "فاران - سورا"، وكل واحد من هؤلاء القادة يخضع له عدد من الضباط وعدد من الكتائب، والجنود<sup>(1)</sup>. وكان الجيش مكون من طبقة المحاربين المنديين المعروفين باسم كالا - تيغي (Kala - tigi)، والذين يشكلون ارسقراطية عسكرية مميزة بنظامها التربوي الصارم المرتكز على الصبر والجلد، حيث كان أفراد هذه الطبقة تتدرب على التأقلم مع الحياة الريفية الصعبة منذ بلوغهم سن السابعة من العمر، وتستمر إلى غاية سن العشرين، يجتاز خلالها هؤلاء الشباب عدة مراحل من الصعاب والتمرينات الشاقة، يثبتون خلالها قوة صبرهم وجلدهم، كما يتعلمون المصارعة والصيد والقنص، وتنتهي العملية بالاختتان الجماعي في سن الثامنة عشر أو العشرين، بعدها يصبح الشاب رجلا قادرا على الحرب والدفاع عن قبيلته ووطنه، كما يحق له بعد ذلك ارتداء لباس الرجال وهو القبعة والقميص والسروال، كما يصبح ملزما بالاستجابة لنداء الملك في حالة التعبئة للحرب، لكنهم لم يكونوا ملزمين بالمكوث داخل الثكنة<sup>(2)</sup>. وبالإضافة إلى الجيش الملكي فقد أحاط سوندياتا نفسه و دولته بمجموعة من الأسر المخلصة والمقربة منه، مثل أسرة توري، سيسي وبيريتي، وهي عائلات تتميز بالإضافة إلى الإخلاص لسوندياتا وعائلته، بالثقافة والعلم<sup>(3)</sup>.

أما فيما يخص النظام القضائي فيبدو أن سوندياتا كان يتولاه بنفسه، إذ كان يمثل القاضي الأول في البلاد، لهذا فلقد كان يمارس القضاء من خلال المقابلات اليومية مع رعيته، وخلال هذه المقابلات كان يستمع بنفسه لشكاويهم ضد أعوانه وممثليه في مختلف

---

السعدي: المصدر السابق، p120, Le soudan occidental au temps des grandes empires, Niane temsir djibril (2)

ص 11

(3)Niane temsir djibril ,Op.Cit,p121

(4)Panhuys(Henri) ,Op.Citp319,

الإمارات والمقاطعات، وكذا ولايته الذين عينهم على الأقاليم، حيث كان يتخذ القرارات الفورية، وكانت أحكامه إلزامية ولا تقبل النقض ولا الاستئناف(1).

### ج: محاربة الرق:

يذكر الإدريسي (ألف كتابه سنة 548هـ/115م) بأن أهل سلى وتكرور وغانة كانوا يغيرون على أرض لملم ويسلبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم، فيبيعونهم إلى التجار الداخليين إليهم، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار(2). كما ذكر ابن سعيد الذي جاء من بعده بأكثر من سبعين سنة (ألف كتابه بين 625 و640 للهجرة/1228 و1243 ميلادي) بأن أهل لملم يعرفون من خلال الرقيق في بلاد المغرب(3). وبذلك نستنتج من خلال هذين النصين بأن تجارة الرقيق كانت منتشرة في بلاد مندي، وبأن السودانيين أنفسهم هم من كانوا يغيرون على سودانيين آخرين مثلهم ويبيعونهم إلى تجار الرقيق. وإذا علمنا بأن أهل سلى وتكرور وغانة كانوا مسلمين في الفترة التي كتب فيها الإدريسي، فإن هذا يدل على أن المسلمين السودان كانوا يغيرون على أهل لملم باعتبارهم كفار يجوز سبيهم. وبما أن الفترة التي كتب فيها ابن سعيد تتزامن مع جزء من الفترة التي حكم فيها سوندياتا إمبراطورية مالي(4). فإن ذلك يبين بأن هذا الأخير يكون قد عاصر فترة استرقاق الزوج من أرض الللم أو غيرها، وبيعهم إلى تجار المغرب، فلقد كانت ظاهرة القبض على أشخاص أحرار وتحويلهم إلى عبيد وبيعهم في أسواق النخاسة منتشرة كثيرا في بلاد الماندينغ(5) وكان بعض قادة سوندياتا المقربين يمارسون هذا العمل، حيث تذكر الروايات الشفوية المنقولة بأن القائد تيراماكان قبض بنفسه

(1) Sow (Amadou aliou), La Mauritanie mon pays natal. Editions l'harmattan, Paris, 2003, p26,

(2) المصدر السابق، ص 33.

(3) كتاب الجغرافيا، ص ص 91 و92.

(1) لقد حكم سوندياتا إمبراطورية مالي بين سنتي 1236 و 1255 ميلادي، بينما ألف ابن سعيد كتابه بين 1228 و 1243 م.

(5) لقد كانت عملية صيد العبيد تكتسي أهمية قصوي بالنسبة لممالك وإمبراطوريات المندي (غانة، مالي، الصوصو) إلى درجة أن المهمة الأساسية التي كانت توكل لحيوشها هي شن غارات من أجل القبض على العبيد. Meillassoux (Claude), Rôle de l'esclavage dans l'histoire de l'Afrique occidentale. In revue Anthropologie et sociétés, Volume 2, Numéro 1, 1978, p118 dans site web : <http://id.erudit.org/iderudit/00875ar>

(3) Youssof tata cissé et Wa kamissoko, La grande geste, tome 1, p203

على عدد كبير من العبيد، وأن فاكولي دومبيا كان يملك في إمارة سولون (Solon) الواقعة على الضفة اليمنى للنيجر، بلداً بأكمله للعبيد يسمى دوندوكو (Doundougou) وكان يبيع معظم أولئك العبيد لشعب الماركا من السوننكي مقابل الملح. وكان أهل فاكولي وأتباعه عندما يزورون مدينة دوندوكو، فإنهم يضعون ملاجم على أفواه من يجيدونهم في طريقهم مثل الملاحم التي توضع في أفواه الخيول والجمال، ثم يأخذونهم إلى بلاد الماركا أو إلى منطقة الساحل في الشمال من أجل مقايضتهم بالملح الذي يجلبونه إلى فاكولي. كما أن العشائر المندية في عهد سوندياتا أو من سبقه على عرش مندي، كانت تقوم قوتهم على عدد العبيد التي يملكونها والمعروفون بديون (Dyon) حيث كان رؤساء العبيد التابعين لكل عشيرة والملقبون بديون - سونديجي (Dyon - Sondidji) يلعبون دوراً أساسياً في تقوية العشيرة، ذلك أن العبد من المندي يصبح حراً بعد ثلاثة أجيال، مما يعطي للعشيرة التي كانت تملكه قوة إضافية<sup>(1)</sup>. وبالتالي فإن انتشار العبودية في بلاد مندي كان مدفوعاً بأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، وبذلك أصبح الإنسان المندي الضعيف يقع تحت نير عبودية رجل مندي آخر أقوى منه. إن هذه الوضعية لم تكن لتترك سوندياتا الذي كان يسعى إلى توحيد جميع بلاد مندن، وهو بحاجة لكل أبنائه أحراراً ومتأخين وسواسية.

لهذا فبمجرد أن عين كأول منسا لإمبراطورية مالي، صرح سوندياتا في خطابه الشهير قائلاً: « إن الحرية للجميع، فلنعش في تضامن وفي احترام لبعضنا البعض، والعظمة لمندن ... فمن أراد التجارة فليتاجر، ومن أراد الزراعة فليمارسها، إن المندن يسع الجميع» لهذا كان على سوندياتا أن يعلن عن قرار جريء لم يسبقه إليه أي أحد من ملوك إفريقيا أو العالم من قبل، وهو الإعلان عن إلغاء العبودية ومنعها في كل مندن، ثم وسعها بعد ذلك إلى كل المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية المالية<sup>(2)</sup>.

لكن لا بد أن نشير إلى أن سوندياتا لم يمنع اتخاذ العبيد وكسبهم لاستخدامهم كخدم في البيوت، لكنه منع تجارتهم منى خلال أسر أشخاص من مندي بيعهم إلى التجار البربر أو العرب، أو مقايضتهم بالملح أو أي سلعة أخرى، وجعل عقوبة من يقوم بذلك

(1)Monteil (Vincent), L'islam noir, p9

2 Ibid,p28

الإعدام<sup>(1)</sup>. كما حاول سوندياتا أن يعيد للعبيد هيبتهم الاجتماعية بعدما أعاد لهم حريتهم، وذلك من خلال تعيين أحد رؤساء العبيد المعروف بجومبا (Djomba)<sup>(2)</sup> كمبعوث وممثل شرعي له في إقليم واسولون الذي كان يسكنه الفلاته، وزوده بصلاحيات وسلطات كبيرة تمنحه الحق في وضع الحديد لكل الفلاته الذين ينطقون بكلمة جون (Djon) والتي تعني عبد، كما أوكلت له مهمة قتل كل من ضبط وهو يقبض على شخص بغرض استعباده أو ثبت عنه أنه استعبد شخصا. وقد طبق الجومبا هذه التعليمات بصرامة كبيرة إلى درجة أنه لقب بـ "تاغان منسا" أي ملك منطقة تاغان<sup>(3)</sup>. كما كلف سوندياتا قائديه الشهيرين، وهما فاكولي دومبيا، وتيراماكان مباشرة بعد معركة كيرينا بتوجيه جيشيهما نحو أقاليم البمبارا والفلاته في مناطق مثل جيتومو، بانان، بايا، غوانياكا، غانادوكو، بانينكو، كورولاميني وغيرها، حاملين معهم كلمة النظام والتي تمثل شعار حرب سوندياتا وهدفها وهي " الحرية للجميع، إلغاء العبودية، منع بيع الناس " وأعطاهم تعليمات بضرب النخاسين والمستعبدین بدون رحمة، وأينما وجدوهم وأسروهم بعدما يتم تحرير عبيدهم<sup>(4)</sup>. كما زود سوندياتا مدينة دوندوكو بإدارة مستقلة، وخلص سكانها من سيطرة أسيادهم<sup>(5)</sup>.

#### د. تنظيم الاقتصاد:

إن التنظيم الإداري الذي وضعه سوندياتا كيتان ساهم بقدر كبير في تنظيم الاقتصاد ونجاعته، حيث عمد إلى توظيف ثروات كل منطقة من مناطق الإمبراطورية في الرفاهية الاقتصادية للدولة، واستغلالها بطريقة عقلانية وبراماتية. فالغرب خصص لإنتاج المواد الغذائية والزراعية، والوسط خصص لإنتاج الحديد، بينما كان الشمال يزود الإمبراطورية بالملح، ويبقى الجنوب وغاباته مصدرا لجلب البطاطا، ونواة الكولا، ومختلف الدرنيات<sup>(6)</sup>.

1) Tidiane N'diaye :Op.Cit, p32.

2 جومبا هو لقب لرئيس العبيد و ليس اسم شخص.

(2) Ibid,p25.p 30

(3) Ibid, p25.

(4) Rosa Amelia plumelle - Vribe : Traite des blancs traite des noirs : Aspects méconnus et conséquences actuelles. Editions l'harmattan,( paris, 2008, p50).

ولقد كانت إمبراطورية مالي تعاني كثيرا من نقص الملح، وكانت هذه المادة تتواجد في منطقة الساحل بالشمال أين تسيطر على مناجمه القبائل البربرية. كما انه بعدما ألغى سوندياتا تجارة الرقيق، فإنه لم يعد ممكنا مقايضة هذه المادة بالعبيد، لذلك كان عليه أن يستغل ثروات البلاد والبحث عن مصادر أخرى للتجارة بها ومقايضتها بالملح عوض العبيد. ولما كانت أرض مالي غنية بالذهب، فقد دعا سوندياتا في خطابه الذي ألقاه عند الإعلان عن ميلاد الإمبراطورية إلى ضرورة البحث عن مناجم الذهب واستخراجه من أرض مندن التي تزخر به(1).

أما بالنسبة لمعدن الحديد، فقد أوكل مهمة استخراجه وصناعته إلى الأسرى الصوصو المعتقلين خلال حرب كيرينا، حيث أمر سوندياتا بتسخيرهم للخدمة في الأفران الكبرى للحدادة والتعدين التي تعد مهنتهم الأصلية، وذلك تكفيرا عما قاموا به ضد مالي، لكنه حرص على أن يعاملوا معاملة طيبة للملتزمين بعملهم(2).

وقد ركز سوندياتا كثيرا على تنشيط التجارة التي اعتبرها الشريان الحيوي للأمة من خلال تنشيط تجارة الذهب(3) وتنظيم التجارة النهرية، لكنه وجه اهتماما خاصا للنشاط الزراعي، حيث أدخل إلى مالي زراعة القطن والفسقن وشجرة البابايا أو المانغو(4). كما عرفت الإمبراطورية إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا(5).

هذا وقد اهتم سوندياتا كثيرا بتطوير أساليب تربية المواشي والرعي(6). وهكذا فقد عمل سوندياتا طوال فترة حكمه التي دامت 25 سنة حسب ابن خلدون(7)، وواحد وعشرون

---

1) (Youssof tata cissé et Wa kamissoko :La grande geste, tome 2,p28

2) (Ibid,p28

3) (Al hassane chérif :L'importance de la parole chez les Mandingues de Guinée. Etudes Africaines, Collection dirigé par Denis pryer. Edité par l'harmattan, paris, 2005, p29.

4) (Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32.

5) (Rosa amelia plumelle – Vribe : Op.Cit, p51

6) (Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32

(7). العبر، مج6، ص267



سنة حسب دولافوس<sup>(1)</sup>، على تأسيس إمبراطورية واسعة، وتدعيم أركانها، وتعزيز الوحدة الوطنية، و حماية ترابها وشعبها. كما حرص على إسماع صوت مالي الجهات الأربعة من العالم كما جاء في خطابه الشهير الذي ألقاه بعد تنصيبه منسا لكل مندن<sup>(2)</sup>، وكان له الفضل في ارتقاء عائلة كيتا عندما حصر الحكم في مالي على ذريته من آل كيتا. وبهذا يكون قد حجز لهذه العائلة مكانة في تاريخ مملكة مالي الإسلامية، وسمح لأبنائها بصناعة مجد لم يكن حكرا على مملكتهم، وإنما بقي ذخرا لكل الأفارقة السود فيما وراء الصحراء، ذلك أن هذه العائلة ورغم رحيل زعيمها الأكبر سوندياتا، إلا أنها خلفاءه من بعده استمروا في توطيد أركان الدولة وتوسيع حدودها، وإرساء دعائمها إلى أن بلغت أوجها، إلى غاية بداية القرن الثامن للهجرة/14م.

### ب. في ميدان . الفنون:

لقد كان أحفاد سوندياتا كثيرون الشبه بملوك المسلمين وملوك الشرق عامة من خلال ولعهم بالفن واكتسابهم لذوق جمالي رفيع. فلقد كان منساواتهم يستقبلون سفرائهم في قصورهم أين كانت تقام حفلات كبيرة، حيث كان كل وفد عن ولايته يأتي بنموذج فلكلوري خاص بمنطقته من أجل تسلية الملك، حيث كانت هذه الاستعراضات تعرف باسم كوتيبا (Koteba)، وما يزال هذا التقليد قائما إلى غاية اليوم في مدينة كيلا. وتقام خلال هذه الاحتفالات التي تعد التسلية المفضلة بالنسبة لملوك مالي أعبا بهلوانية تجسد دور الصياد الفاشل، أو خلافات الزوج مع زوجاته ومختلف مظاهر الحياة اليومية للمندي. كما تتشد بعض الأناشيد التي ظهرت في عهد والدة منسا موسى وهي نانا كونكو<sup>(3)</sup>.

صحيح أن هذه التقاليد الاحتفالية وجدت قبل وصول عائلة كيتا إلى الحكم، وربما قبل تأسيس دولة المندي، لكنها استمرت في عهد أحفاد سوندياتا وخاصة عهد منسا موسى

---

(1) يحددها دولافوس بواحد و عشرين سنة على اعتبار أن بداية حكمه حسبها كانت في عام 1234م/631هـ، أي عندما استدعاه نبلاء مندن لقيادتهم في الحرب ضد مملكة الصوصو . بينما توفي حسبها سنة 1255م/652هـ- (Haut Sénégal- Niger, t2, p28)

(8) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko :La grande geste, tome 2, p28

(2) Niane temsir djibril : Recherches sur l'empire du mali, p53.

(3) Ibid.

وأخوه سليمان، حيث وصف ابن فضل الله العمري جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في مجلس منسا موسى، عندما يقول: (( وبين يديه (أي منسا موسى) أناس يرقصون وهو يتفرج عليهم ويضحك منهم)).<sup>(1)</sup> كما ذكر ابن بطوطة جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في يوم العيد.<sup>(2)</sup>

أما الموسيقى فقد كانت من أهم الأشياء التي ارتبطت بالحياة داخل القصر الملكي لعائلة كيتا، وقد ظهرت لأول مرة في عهد سوندياتا كيتا وما زالت قائمة إلى اليوم، وهي ترافق الأناشيد والملاحم التي تروي أمجاد العائلة الملكة خلال المناسبات، والتي تتخللها الأساطير والمعروفة بالجيلي، أو الروايات الشفوية. وكانت تعزف هذه الموسيقى عن طريق آلة الكورا (La kora) وهي قيثارة صغيرة ذات طابع إفريقي.<sup>(3)</sup> وقد ظهرت آلة الكورا سنة 1235م، أي في العام الذي انتصر فيه سوندياتا على ملك الصوصو، وتحتوي هذه الآلة على واحد وعشرين وترا، وكل وتر له دور معين، وفي مقبض الآلة يوجد تسعة ثقوب مفتوحة إلى الخارج، أما الخشب المركزي فهو يمثل العمود الفقري للآلة، بحيث تشبه هذه الآلة جسم الإنسان إذ تتوفر على قلب ولسان ويد وغيرها، وقد اكتشفت هذه الآلة من طرف قائد سوندياتا تيراماغان عندما كان في كهوف كنسالة المتواجدة في مملكة كابو(غمبيا الحالية) خلال غزوه للغرب.<sup>(4)</sup>

و كانت النصوص التي يتم إنشادها على أنغام هذه الآلة ذات طابع شعري ملحمي، حيث يلقي المنشد قصيدته على شكل اغنية أو أنشودة هي مزيج بين الغناء و الرواية (اي

---

(1) المصدر السابق، ص 115.

(2) المصدر السابق، ص 686.

(3) Niane( djibril Tamsir):Le soudan occidental, au temps des grandes empires, p219.

(4) تقول الروايات الشفوية بأن هناك امرأة ساحرة كانت تعزف بهذه الآلة عند كل فجر بالقرب من هذا الكهف، وأنها كانت تؤثر في المحارب الذي حاول أن يملكها وهو تيراماغان، فذهب للبحث عن أصدقائه وهم ثلاث أشهر الرواة الشفويين في مندي بالإضافة إلى ثلاث صيادين من كوني، فتوجهوا معه للقبض على هذه المرأة الساحرة التي تزوجها فيما بعد تيراماغان وأعطى لأحد أصدقائه الرواة وهو "جيليمالي أولي دياباتي" الآلة الموسيقية، وهذا الأخير نقلها لابنه كانبا(Kanba) و منه انتقلت إلى الرواة الآخرين.

ترانيم)، إذ يضبط إيقاع كلماته مع إيقاع الآلة التي ترافقه . كما ان اختيار كلمات أناشيده لم يكن اعتباطيا و لا عشوائيا، بل لابد أن يوافق إيقاع الموسيقى التي تصدرها آلة الكورا(1).

إن الرواة الشفويون يمكنهم استعمال ثلاثة أنواع من التعبير خلال عرض ملحمتهم، وهي: الرواية، الانشاد بالإضافة الى الغناء المرفوق بالموسيقى باستعمال آلة الكورا طبعاً، ويوجد هناك شخص واحد فقط قادر على القيام بهذه الاعمال الثلاثة معا و هو زعيم الرواة. أما النساء الذين يطلق عليهم لقب جيلي - موسو (jeli-musu) الذين عادة لا يروون الاناشيد و الاشعار، لكن يمكنهم غناء بعض الملاحم لكن بمفردهم أو بالاشتراك مع امرأة أخرى بحيث تساعدها عندما تتقطع كلماتها(2).

و تعرف الفرق الموسيقية التي تعزف فيها آلة الكورا المرافقة للأناشيد باسم (بالا فاسيكي Balla Fasseke)، وهي الفرقة الموسيقية التي نسب للراوي الشخصي والرسمي للإمبراطور سوندياتا كيتا، و الذي كان أول من عزف على هذه الآلة، وتتفرع إلى ثلاث طبوع أو مواضيع هي:

. ديانديون (Diandion): و هي اناشيد تروي أمجاد القائد فاكولي(3) ابن أخت سومنغورو كونتي الذي انظم إلى قوات سوندياتا، وغزا بلاد الجولوف، وهي تعد تراثا محفوظا بالنسبة لأحفاده.

. بولوبا (Boloba): وهي الموسيقى الخاصة بسومنغور كانتني، وقد ظهرت بعد معركة كيرينا، وأقراها سوندياتا كنيشيد وطني لكل الماندينغ.

. دوغا (Douga): وهي أغنية المحاربين والموسيقى الخاصة بهم، تنشد خلال المعارك(1).

---

1( John Johnson, Peter Bryant, Mihaela Bacou, Brunhilde Biebuyck, GRIOTS MANDINGUES:

CARACTÉRISTIQUES ET RÔLES SOCIAUX, Op.Cit,p17.

(2)Ibid,p9

(3) فاكولي هذا هو جنرال ملك الصوصو (سونغومرو . كونتي) و ابن اخته ، لكن سومنغورو اخذ منه زوجته بالقوة وتزوجها مما جعل هذا القائد يتمرد على خاله و يلتحق بقوات سوندياتا كيتا مما ساهم في انتصاره على ملك الصوصو وتحرير مملكة مالي، للاطلاع أكثر انظر:

DoumbiaFakoly,Fakoli : prince du Mandé. Récit historique. Editions L'harmattan, Paris, 2003, Pp49, 50 et 51.

و لقد أفادت شهادة ابن بطوطة بجانب من هذه الاستعراضات التي كانت تعزف في قصر الملك منسا سليمان، فذكر آلة الطرب التي تصنع من القصب القرع وقال بأن لها صوت عجيب، والتي قد تكون آلة الكورا التي تحدثت عنها الروايات الشفوية، خاصة أنه ذكر الغناء الذي يصاحبها خلال احتفالات يوم العيد، أين كانت تتضمن هذه الأغاني مدح السلطان وذكر غزواته وأفعاله وتغني معه النساء والجواري، كما ذكر ضرب الطبول والأبواق و الأنفار. (2)

كما عرفت الساحة الفنية لمالي آلات موسيقية أخرى مثل البلافون (Balafon) البولون (Bolon) والسمبي (Simby) وعرفت إمبراطورية مالي الملاحم الخاصة بسوندياتا كأهم الفنون الموسيقية، وتعرف هذه الملاحم باسم سونجاتا فاسا (Soundjata fassa) وهي سيمفونية موسيقية خاصة بكل أبطال معركة كيرينا، حيث تم إنشاء ما يعرف ببالا فاسيكي (Balla Fasseke)، وهي الفرقة الموسيقية التي تمثل الراوي الشخصي والرسمي للإمبراطور سوندياتا، وتتفرع إلى ثلاث طبوع أو مواضيع هي:

. ديانديون (Diandion): وتروي أمجاد القائد فاكولي ابن أخت سومنغورو الذي انظم إلى قوات سوندياتا، وغزا بلاد الجولوف، وهي تعد تراثا محفوظا بالنسبة لأحفاده.

. بولوبا (Boloba): وهي الموسيقى الخاصة بسومنغور كانتني، وقد ظهرت بعد معركة كيرينا، وأقرها سوندياتا كنشيد وطني لكل الماندينغ.

. دوغا (Douga): وهي أغنية المحاربين والموسيقى الخاصة بهم، تتشد خلال المعارك. (3)  
ولقد أفادنا ابن بطوطة بجانب من هذه الاستعراضات التي كانت تعزف في قصر الملك منساسليمان، فذكر آلة الطرب التي تصنع من القصب القرع وقال بأن لها صوت عجيب، والتي قد تكون آلة الكورا التي تحدثت عنها الروايات الشفوية، خاصة أنه ذكر الغناء الذي

---

1) Niane (djibril Temsir), Le soudan occidental, au temps des grandes empires, Présence Africaine, Paris, 1975, p219.

(2) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم)، تحفة النظار و غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المعروف بالرحلة)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1992م، ص ص 684 و 686.

3) Niane (djibril Temsir): Le soudan occidental, au temps des grandes empires, p219.

يُصاحبها خلال احتفالات يوم العيد، أين كانت تتضمن هذه الأغاني مدح السلطان وذكر غزواته وأفعاله وتغني معه النساء والجواري، كما ذكر ضرب الطبول والأبواق والأنفاز. (1)

### ج . في الميدان الجغرافي (الكشوفات)

#### • مملكة مالي والقارة الأمريكية:

يقول ابن الوردي (2) عن المحيط الأطلسي الذي كان يدعى ببحر الظلمات: ((ويسمى المظلم لكثرة أهواله وصعوبة متته فلا يمكن أحد من خلق الله أن يلج فيه، إنما يمر بطول الساحل لأن أمواجه كالجبال الرواسي وظلامه كدر وريحه ذفر، ودوابه متسلطة، ولا يعلم ما خلفه إلا الله تعالى، ولا وقف منه بشر على تحقيق خبر)). (3) لكنه ربما لم يكن يعلم عندما كتب ذلك، بأن مؤرخا معاصرا له وهو ابن فضل الله العمري (المتوفى سنة 749 هـ/1349م) ذكر بأن أحد ملوك السودان يكون قد اجتاح هذا المحيط سنة 707 هـ/1307م ولم يعد.

فقد ذكر العمري عن ابن أمير حاجب بأن الملك منسا موسى قد أسر له بأنه كان قبله ملك وهو أبو بكر الثاني، لم يكن يصدق أن البحر المحيط لا يمكن الوقوف على آخره، فأراد الوقوف على هذا الأمر وتحمس له، وجهاز مائتا مركبة مملوءة بالرجال، وأخرى مثلها مملوءة بالذهب والماء وما يحتاجه المسافر من زاد ما يكفيهم لسنين، وقال للمسافرين فيه لا ترجعوا حتى تبلغوا نهاية هذا البحر، أو ينفذ زادكم ومأؤكم، فساروا وطالت مدة غيابهم إلى أن عاد مركب واحد منها، فسأل كبيرهم عن أخبار رفقائه، فأخبره بأنهم لما ساروا زمنا طويلا في البحر ظهر لهم في وسط البحر واد ذا مجرى قوي، فاخترت في غمرتها كل المراكب ما

(1) المصدر السابق، ص ص 684 و 686 .

(2) هو الشيخ الفقيه النحوي القاضي المؤرخ زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري البكري المشهور بابن الوردي، عاش بين (691 - 749 هـ / 1292 - 1349 م) من شعراء القرن الثامن الهجري . ولد في المعرة غرب مدينة حلب بالشام (سوريا) زمن المماليك سنة 689 هـ (وقيل أنه ولد سنة 691 هـ) كان من علماء اللغة العربية والنحو والفقه والأدب والتاريخ كما دل على ذلك تلك المصنفات المتنوعة له، اشتهر بالزهد والورع وحسن الخلق وطيب المعشر، فكانت له مهابة في قلوب معاصريه. تولى القضاء في منبج شيزر وحلب، ثم ما لبث أن ترك ذلك كله وعزل نفسه لمنام رآه كتب أبياتا... =في ذم القضاء وأهله، ثم اشتغل بالتعليم والتأليف حتى شاع ذكره وطار صيته في البلدان، توفي بالطاعون سنة 749 هـ/1349م .

(3) ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر)، خريدة العجائب و فريدة الغرائب. طبع بمصر، سنة 1922، ص 54.

عدا مركبته التي لم تدخل ذلك الوادي، ورجعوا من حيث أتوا. لكن هذا الملك لم يعجبه كلام ذلك الربان، فجهز ألفي مركبة، ألفا له ولمرافقيه وألفا للزاد والماء، ثم استخلف ابنه منسا موسى وركب البحر المحيط وسافر فيه ولم يعد. (1)

لم يكن العمري هو المصدر الوحيد الذي تكلم عن هذه القضية، حيث نجد رواية مشابهة لها في المصادر الشفوية السودانية، ومفادها أن الإمبراطور المالي أبو بكر الثاني قام بإرسال حوالي 330 قارب باتجاه سواحل أمريكا، فرجع ربان واحد من هذه الحملة التي تكون قد اجتازت المحيط. (2) وحسب الرواية الشفوية دائما فإن سكان القارة الأمريكية يكونوا قد رحبوا بالزعيم المالي وهنئوه على انجازه، أما هو فقد بعث رسولا إلى مالي ليخبرهم بوصوله وتنصيب أخاه منسا موسى ملكا على مالي. (3) وبهذا يحق لنا أن نتساءل هل فعلا تمكنت عائلة كيتا من اكتشاف القارة الجديدة ثلاثة قرون قبل الرحالة الايطالي كريستوف كولومبوس؟

في الحقيقة نحن نجهل سبب انفراد العمري بسرد تلك الرواية، وعدم نقلها عنه من طرف المصادر العربية، فحتى ابن خلدون الذي يعد مصدرنا الكبير عن ملوك مالي منذ برمندانه، لم يكلف نفسه عناء نقل هذه المعلومة عن العمري رغم أنه توفي بعده بحوالي ستين سنة (توفي ابن خلدون سنة 808هـ/1406م)، وهذا ربما لعدم تصديقه لتلك الرواية، كما لم يصدقها معظم المؤرخين الغربيين الذين اعتبروا القصة مجرد حكاية هزلية، (4) ومنهم من همشها وأهملها عن قصد حتى لا تعاد كتابة التاريخ من جديد، (1) لكننا

---

(1) العمري: المصدر السابق، ص ص 120 و 121.

(2) Xavier van der stappen ,L'Afrique du fleuve de Niger, le Dioliba en canoé. Editions l'Harmattan, Paris, 1996, p151.

(3) Doudou N'diaye rose ,l'histoire de l'épopée Mandingue. In site : <http://www.si.umish.edu>. Consulté le : 20-06-2008

(1) حول هذا الموضوع انظر:

Bernard Lugan ,God bless Africa ,Contre la mort programmé du continent noir. 2<sup>ème</sup> édition, Editions Carnot, New York, USA, 2003, pp de 58 au 151

(2) Leyden et Murray (Hugh) ,Histoire complète des Voyages et découvertes en Afrique, pp 86,87.

(3) Xavier van der stappen :Op.Cit, p152

في المقابل نرى بأن هناك عدة دلائل وقرائن تجعل رواية العمري تقوم على أسس تاريخية وعلمية معقولة.

فالرواية الشفوية تقول بأن أبا بكر الثاني اعتمد في حملته تلك على خبراء من العرب المسلمين، وأنه انطلق من خليج غامبيا واختفى في عرض السواحل البرازيلية نتيجة تمرد بعض الرواة الشفويين (المنشدون) الوثنيين الذين كانوا يرافقونه بسبب تكريم لدور العلماء العرب المسلمين في هذه الرحلة نظرا للصراع الخفي القائم آنذاك بين المسلمين والوثنيين داخل القصر الملكي وبين حاشيته.<sup>(2)</sup>

وهنا يمكننا أن نعود إلى خبرة وتفوق العرب المسلمين في الملاحة البحرية خلال العصور الوسطى، والذين سبق لهم أن خاضوا تجارب مماثلة حسب المصادر العربية حتى قبل رحلة أبي بكر تلك. فيذكر الحميري<sup>(3)</sup> بأن أحد أهالي الأندلس يدعى بالخشخاش، قام هو وجماعة من فتيان قرطبة وأحداثها بركوب مراكب واستعدوها ودخلوا البحر المحيط، وغابوا مدة ثم أتى بغنائم واسعة وأخبار مشهورة.

كما يروي ابن الوردي بأن جماعة من أهل أشبونة (لشبونة) وهم ثمانية أنفس وكانهم بنو عم، اشتروا مركبا كبيرا وحملوا فيه من الزاد والماء ما يكفيهم لمدة طويلة، وركبوا متن هذا البحر ليعرفوا ما في نهايته، وقرروا ألا يرجعوا حتى ينتهوا إلى البر الغربي أو يموتوا، فسافروا فيه لمدة أحد عشرة يوما حتى دخلوا إلى بحر عظيم وموجه كبير كثير القروش

---

(4) هو محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري. عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/13م. ولد بمدينة سبتة، يرجح أنه كان كاتبًا يعمل في توثيق العقود وترجع شهرة الحميري إلى كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار و... = معجم جغرافي لا يخلو من سرد بعض الأخبار والوقائع التاريخية، ومرتب على حسب الحروف. وعلى الرغم من أن الحميري نقد الإدريسي نقدًا شديدًا في بداية كتابه، إلا أنه نقل عنه كثيرًا وخصوصًا في وصف أسبانيا، وقد اهتم الروض المعطار بوصف المدن والأقطار والجزر وبعض المحيطات والبحار، وقد وصف كثير من الباحثين الحميري بأنه نقل كثيرًا عن غيره ومع ذلك فإنه يرجع الفضل في حفظ كثير من الروايات التي تُعد أصولها مفقودة.

فأيقنوا بأن مصيرهم الهلاك فرجعوا مع البحر سالكين الجنوب لمدة أثني عشرة يوماً فدخلوا إلى جزيرة فيها عدد لا يحصى من الغنم طعمها مر، وبها ماء عذب ولا يوجد بها بشر، فتركوها بعدما أخذوا جلود الأغنام معهم وساروا في البحر اثنتا عشرة يوماً أخرى إلى جهة الجنوب حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة فقبض عليهم أهلها وهم رجال شقر الألوان طوال القد، وأخذوهم إلى ملكهم الذي كلمهم عن طريق ترجمان، ولما عرف سبب خوضهم للبحر المحيط ضحك منهم ساخراً وقال لهم : إنني وجهت من عندي قوماً في هذا البحر ليأتوني بخبر ما فيه من العجائب، فساروا مغربين لمدة شهر ثم رجعوا بدون فائدة.<sup>(1)</sup> والملاحظ على رواية ابن الوردي أن ملك الجزيرة الذي كلم الإخوة كان لديه مترجم يتقن العربية، وهو دليل آخر على أنهم لم يكونوا من وصل إلى ذلك المكان في المحيط الأطلسي.

ويذكر المؤرخ التونسي عثمان الكعاك بأن البربر ذهبوا إلى القارة الأمريكية في أول الأمر مع القرطاجيين، ثم مع مسلمي الأندلس الذين كانوا يترددون عليها، كما تمكنوا من وضع أقدامهم في العالم الجديد حتى قبل مجيء الفنيقيين أي خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأن هناك قبائل كاملة في أمريكا تحمل أسماء بربرية، حيث توجد قبيلة مطماطس مثلما توجد ببلاد المغرب قبيلة مطماطة، وتوجد قبيلة مائة التي تقابلها قبيلة لماية، وقد استقى هذا المؤرخ معلوماته من ضابط أمريكي كتب عن البربر.<sup>(2)</sup>

فهذه الشهادات كلها تبين بأن المسلمين كانت لهم سوابق في ميدان الملاحة وخاصة فيما يخص المحيط الأطلسي الذي خبروه جيداً، فكان اعتماد أبي بكر الثاني عليهم في حملته قائم على سابق معرفته بهذا الموضوع، مثلما اعتمد كريستوف كولومبس على خبرة أحمد بن ماجد بعد ثلاث قرون لاكتشاف أمريكا.

وهناك دلائل وشواهد مادية تجعل رواية العمري معقولة، منها اكتشاف ثلاث كتابات في الولايات المتحدة الأمريكية بعضها مكتوب بالحروف الإفريقية بلغة المندي وبعضها الآخر مكتوب بالعربية وبالخط الكوفي، وفي بحر الكاراييب أين ما يزال يعيش الهنود الحمر

---

(1) ابن الوردي (سراج الدين عمر)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب. مطبعة مصطفى البائي الحلبي وأولاده ، مصر، 1341هـ/1922م، ص ص 18 وما يليها.

(2) الكعاك عثمان، البربر. نشر مؤسسة تامغناست، تونس، 1375 هـ، ص 12.



إلى غاية اليوم توجد قبائل مازالت تكتب بحروف ماننكية وهي لغة أهل مالي.(1) وخلال اكتشاف كريستوف كولومبس للقارة الأمريكية أخبره واحد من الهنود الحمر بأنه قد سبقه بمدة طويلة قوم ذووا بشرة سمراء قدموا من البحر، لكن كريستوف كولومبس تجاهل الأمر ولم يعره اهتماما كبيرا، إلا أنه وجدت في يومياته الخاصة باليوم الثالث بأنه وجد بالقارة الجديدة معدن يتمثل في خليط من الذهب والنحاس والفضة، وهو معدن كان التجار السودان يصدرونه إلى إسبانيا.(2)

كما وجد هذا الرحالة الجنوبي بالقارة الجديدة آثارا وخاصة تماثيل مماثلة لتلك التي كان يصنعها المندي،(3) و في عام 1966م، وخلال المهرجان العالمي للفنون السودانية في دكار بمساهمة ليوبولد سيدار سنغور (Leopold Sedar Senghor)(4) عرضت بصفة علمية ورسمية تماثيل مصنوعة بالطين المشوي(الفخار) تعود إلى فترة ما قبل الكولومبية (Précolombienne)(5) والتي تمثل كل الأصناف الفنية السودانية المعروفة في إفريقيا.(6) وهناك عدة كتابات غربية وأمريكية تقر هذه الحقيقة وتؤكد لها مثلما جاء في كتاب ايمانويل ايريسكو إيبيرا (Emanuel Erisko ebira) بعنوان التاريخ القديم لاحتلال المكسيك (Historia antigua de la conquista de mexico) بأن أمريكا الوسطى كانت عموما و البرازيل خصوصا كانت عبارة عن مستعمرات لشعوب سوداء جاؤوا من إفريقيا.و هناك كاتب أمريكي يدعى ليون فرنيل، كان أستاذا بجامعة هارفارد الف كتابا سنة 1920م بعنوان إفريقيا واكتشاف أمريكا (Africa and the discovery of america) ذكر فيه

---

(1) علي محمد الغامدي، مالي و القارة الأمريكية. مقال نشر في الموقع الإلكتروني: [www.wikipedia\\_mali.org](http://www.wikipedia_mali.org)

نشر يوم: 2007. 09. 10

2)(Tidiane N'diaye, Op.Cit, p49.

3)( Milet(Eric) et Manaud(Jean-Luc) ,Mali.Editions Olizane, Genève, 2007, p34.

(4) هو شاعر، كاتب ورجل سياسي سنغالي، ولد يوم 09 أكتوبر 1906 م . كان أول رئيس سنغالي (بين 1960 و1980م)، كما كان أول إفريقي جلس بالاكاديمية الفرنسية، وكان أيضا وزيرا في فرنسا قبل استقلال بلاده، خلال الثلاثينيات من القرن العشرين ارتبط بعدد من المثقفين الأفارقة بالخارج وانشؤوا جريدة الطالب الأسود والتي خلالها جاء بمصطلح نغريتود(Négretude) أو السودانية التي يشرحها بما يلي ( السودانية هي بكل بساطة أن تعترف بأنك أسود، و تقبل مصيرك كأسود، و بتاريخك و ثقافتك).

(5) إن الحضارة ما قبل الكولمبية أو ما قبل الاسبانية (Préhispanique) يقصد بها الفترة التي ساد فيها السكان الأصليون في أمريكا اللاتينية قبل اكتشافها من طرف كريستوف كولومبوس.

6)( Tidiane N'diaye ,Op.Cit, p49.

بأن كريستوف كولومبس أشار إلى وجود هناك مندبين في شمال ووسط القار الأمريكية حيث تزاوجوا مع قبيلتين من قبائل الهنود الحمر.(1)

ويذكر الأستاذ إيفان فان سرتيما (Ivan van Sertima)<sup>(2)</sup> مؤلف كتاب بعنوان: جاؤوا قبل كولومبس (They came before Columbus) الذي يتكلم فيه عن أمريكا ما قبل الكولومبية، بأنه لا يريد أن يثبت بأن الأفارقة هم من اكتشفوا القارة الأمريكية، لكن كانت لهم اتصالات معها قبل الجميع، وهؤلاء الأفارقة يعتقد بأنهم مصريو بلاد النوبة. وحسب فان سرتيما دائما فإن هذه الهجرة الإفريقية كان لها دور كبير في صنع تلك التماثيل السوداء، ويضيف بأن الشعوب ذات الأصول الإفريقية في المكسيك، فنزويلا، البيرو، كولومبيا، والهندوراس، فقد بقوا يحتفظون بالشعور بأن أغلبية سود أمريكا من غير الميلانيزيين (Mélansiens)<sup>(3)</sup> كانوا موجودين في القارة الأمريكية قبل الأوربيين.<sup>(4)</sup>

وعموما فإن قضية اكتشاف للقارة الأمريكية من طرف أحد أفراد عائلة كيتا المالية، لم يعد من المواضيع الهزلية والمضحكة كما يريد بعض المؤرخين الغربيين أن يصوره لنا في محاولة منهم لإخفاء الحقائق التاريخية التي تزعجهم، لأن هذه الحقائق كفيلة بجعل التاريخ الأمريكي كله يرتبط بالشعوب السوداء حسب ما يذهب إليه الانتروبولوجي السنغالي تيديان ندياي (Tidiane N'diaye)<sup>(5)</sup> فلقد كتب الأستاذ النرويجي بورن روا ربي ( Bjorn Roar Bye) مقالا بعنوان (أبو بكر الثاني اكتشف أمريكا قبل كريستوف كولومب) جاء فيه بأنه في سنة 1982م ذهب في حملتين إلى جزر مالديف مع المستكشف تور هيرداهيل (Thor Hayerdahl) وعند عودته إلى أوربا سأل هذا المستكشف هل سبق له وأن سمع

---

(1) علي محمد الغامدي، المرجع السابق.

(2) هو أحد الكتاب الأمريكيين وأحد قادة ما يعرف بباراسونتريزم (Paracentrisme)، وهي حملة تبحث عن صيغة لإعطاء الثقافة والشخصية الإفريقية دور في التاريخ العالمي، ويعتقد أصحابها بأن الغرب يقللون من أهمية الحضارات الإفريقية، لذلك أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عنها.

(3) الميلانيزيين les Mélansiens : هم شعب استقر في كاليدونيا الجديدة منذ حوالي أربعة آلاف سنة على الأقل، ويعتقد أنهم قدموا من منطقة بورنيو بالفلبين، وقد انتشروا أيضا في جزر المحيط الهادي .

(4) Pathé Diagne, Tarana ou L'Amérique précolombienne : Un continent Africain. Editions l'harmattan, Paris, 2010, p226.

(5) Op cit. p49

بملك أسود يدعى أبا بكر الثاني فأجابه بالإيجاب، وهو ما شجعه على البحث أكثر عن هذا الرجل، فبحث في الانترنت، واتصل بالمؤرخين والأثريين والجغرافيين وغيرهم، وتبادل معهم الكتب والمعلومات، فتعجبت من ذلك الكم الهائل من الأبحاث التي قاموا بها لعدة سنوات حول هذا الموضوع ودون أن يخفوا عنه الحقائق، فاستنتج في الأخير بأن هناك من يريد تعمد إخفاء جزء من التاريخ لغاية لا يعلمها إلا الله.(1)

---

(1) Bjorn Roar bye , Aboubakary Zroi du Manding découvert l'Amérique avant Christoph colombe. In : Afrique passion, éditions GAP, ville franche de Rouergue, 2002, N°3.